قـواعـد منـهجيـة
فـي الدعوة إلـى الله

إعـداد
أ. د. فالح بن محمد بن فالح الصغيّر

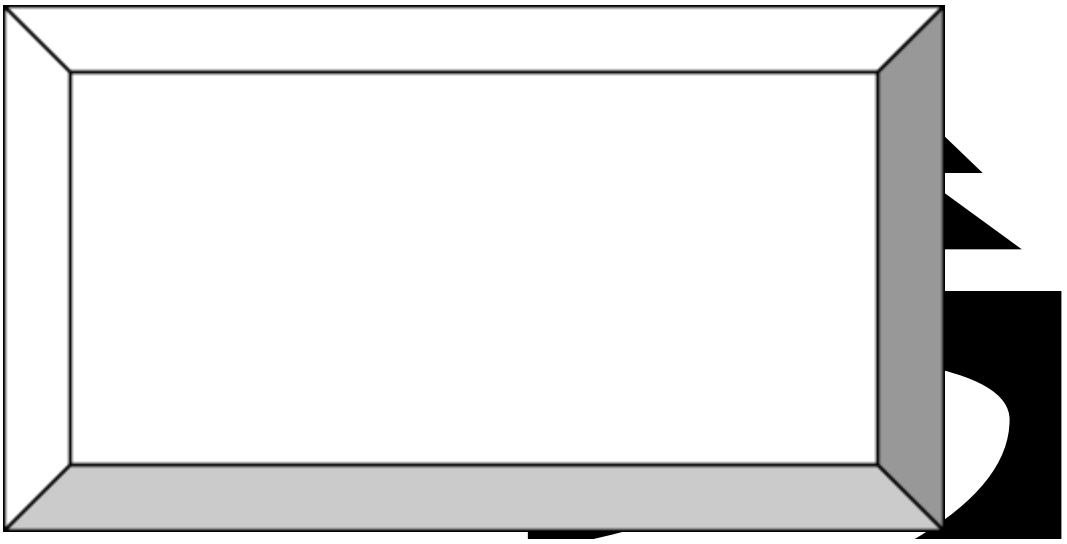

الـمقـدمــة

الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا فيه كما يحبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، وأتباعه إلى يوم الدين، أما بعد:

فمما لا شك فيه أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم القدوة والأسوة في الأمور كلها: [illegible] [الأحزاب: 21] وقال سبحانه عن نبيه صلى الله عليه وسلم: [illegible] [القلم : 4].

وقد بعثه الله سبحانه وتعالى بشيرًا ونذيرًا، وهاديًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا، ومبلغًا عن ربه سبحانه، فبلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فكان على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

فكانت مهمته عليه الصلاة والسلام البلاغ عن ربه ليقوم الناس بعبادته قال تعالى: [illegible] [الشورى: 48]، وقال سبحانه: [illegible] [المدثر: 1-2]، وقال: [illegible] [الشعراء: 214]، [illegible] [الأنبياء: 107]، وهكذا تتوالى الآيات في إيضاح المهمة والهدف.

وبهذا رسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته المنهاج العظيم في الدعوة ليقتفوا أثره، ويسلكوا خطاه، وينتهجوا نهجه.

فاجتهد الصحابة ن في ذلك، ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم حتى ألّفوا في ذلك مؤلفات مستقلة وكتبوا كتابات مستفيضة بالإضافة إلى خبراتهم وتجاربهم، فجزاهم الله خيرًا على ما قدموا وسطروا للإسلام والمسلمين.

ومن المعلوم أن الدعوة الإسلامية مستمرة استمرار الزمن، ولها مستجداتها وقضاياها المتنوعة، ونوازلها المتكررة، مما يوجب على أهل العلم والدعوة أن يجتهدوا في البيان والتوضيح.

ولقد استقرأت كثيرًا من المناهج والأعمال الدعوية، فوجدت فيها خيرًا كثيرًا يشكرون عليه، ويدعى لهم بالتوفيق والتسديد، والأجر والثواب، كما وجدت بعض مواضع الاجتهاد – قولًا وعملًا – ما يستوجب إبداء الرأي والنصح والبيان، وبخاصة في هذا الوقت الذي نشطت فيه الدعوة كما نشط مخالفوها.

ولقد رأيت أن من أهم ما يجب بيانه هو جمع ما تناثر من المسائل وتسطيرها على شكل قواعد لتكوّن منطلقات يستوعبها الداعية وطالب العلم، فتكون ضابطًا لكثير من التصرفات، فجمعت ما تيسر، وحاولت جمع المتماثل أو المتقارب ليجتمع في قاعدة، فكان ما ظهر من هذه القواعد، وهو (بلا شك اجتهاد) أرجو أن يكون راجحه أكثر من مرجوحه، وهو قابل للرأي والزيادة والنقصان، ويبقى أنه اجتهاد بذل الجهد فيه بين التأمل والمراجعة والمناقشة مع البحث العلمي، كما اجتهدت في محاولة التأصيل الشرعي لهذه القواعد مع مراعاة عدم التطويل والإسهاب مكتفيًا بما يوضح المراد، وبالله التوفيق ومن يستمد التسديد.

هدف البحث :

يجتمع هدف البحث في ما يلي:

1 – توضيح منطلقات أساسية، وضوابط للعمل الدعوي سواء كان من قبل مؤسسات أو أفراد.

2 – بناء منهج متكامل للدعوة يجمع بين وضوح الرؤية وسلامة الطريق والطمأنينة.

3 – معالجة ما يطرأ من مشكلات في مسيرة الدعوة ومواقفها.

منهجية البحث:

تجتمع منهجية البحث فيما يلي:

1 – تمهيد للبحث في مفهوم الدعوة وفضلها ووظيفتها ومقوماتها.
2 – تقسيم البحث إلى قواعد ليسهل تصورها. تضم كل قاعدة ما يلي:
أ – بيانًا مجملًا للقاعدة.
ب – تأصيلها الشرعي.
ج – محاولة التنزيل على الواقع التاريخي لدعوة النبي ﷺ، والربط المباشر لكل قاعدة في دعوته، والاستدلال على ذلك.
د – إيراد بعض الأمثلة من الواقع.
هـ - التفصيل فيما تتطلبه القاعدة المرادة للعمل الواقعي.
و - الآثار الإيجابية للعمل بالقاعدة والسلبية عند تركها.
ز – خلاصة القاعدة بشيء من التفصيل.
3 – الاستدلال بالقرآن الكريم، والسنة المطهرة مع العزو والتخريج وبيان الحكم على الحديث في ضوء منهجية البحث العلمي.
4 – حاولت الاستفادة من أقوال الأئمة من السلف فيما يعضد القاعدة.
5 – لخصتُ البحث بمعالم منهجية تستقى من هذه القواعد لبناء دعوة متكاملة وذلك في خاتمة البحث.
6 – استفدتُ من كتابات بعض المعاصرين بالنقد الإيجابي والمناقشة لبعض المسائل والقضايا.
7 – ركزتُ على جوانب أرى أنها من موجبات هذا البحث، وهي الوضوح في طرح الأفكار، والتفصيل في بعض الخطوات، والنقد الإيجابي لما طرحته بعض الدعوات، أو للمواقف المعاصرة، أو الأساليب التي ينتهجها بعض الدعاة. ونحو ذلك.

وهنا أشير إلى ملحظ قد يراه القارئ الكريم وهو ذكر شيء من التكرار لبعض الأدلة أو الأمثلة لمقتضى المقام، وكذا التداخل بين بعض القواعد والأفكار.

وأما خطة البحث، فهي:

* **المقدمة**، وفيها: سبب البحث وأهدافه ومنهجيته وخطته.
* **والتمهيد**: ويتضمن القواعد، وهي:
  - **القاعدة الأولى**: المقاصد والنيات.
  - **القاعدة الثانية**: وضوح الرؤية والهدف.
  - **القاعدة الثالثة**: الغايات والوسائل.

- **القاعدة الرابعة**: الموازنة بين العلم والعبادة والعمل.
- **القاعدة الخامسة**: فقه المصالح والمفاسد.
- **القاعدة السادسة**: البناء والمعالجة.
- **القاعدة السابعة**: التغيير والإصلاح.
- **القاعدة الثامنة**: العقل والعاطفة.
- **القاعدة التاسعة**: المثالية والواقعية.
- **القاعدة العاشرة**: العناية بالكل أو الجزء.
- **القاعدة الحادية عشرة**: الائتلاف والاختلاف.
- **القاعدة الثانية عشرة**: الموازنة بين الترغيب والترهيب.
- **القاعدة الثالثة عشرة**: التفاؤل واليأس.
- **القاعدة الرابعة عشرة**: التدرج وعدم الاستعجال.

*** والخاتمة.**

وأخيرًا، فهذه محاولة، آمل أن تكون مفيدة لكاتبها وقارئها، لا أزعم أني بلغت فيها شأنًا لم يُبلغ، ولكنه اجتهاد أملاه الأمانة، والمسؤولية، قام على الاستقراء للواقع، والنظر في الأدلة الشرعية، والاعتماد على سيرة النبي ﷺ، فما كان فيه من صواب فهو المؤمل، وأسأل الله تعالى الثواب عليه، وما كان فيه من خطأ، أو عدم رجحان فأسأل الله العفو والصفح، إنه سميع قريب مجيب.

ثم آمل من القارئ الكريم التصويب والتسديد، فهذا البحث اعتمد على الاستقراء كثيرًا، فجزى الله خيرًا من سدد وصوّب، وأعان بزيادة فكرة، أو تعديل أخرى، أو مزيد أمثلة، ونحو ذلك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

أ. د. فالح بن محمد

بن فالح الصغير

البريد الإلكتروني : falehmalsgair@yahoo.com

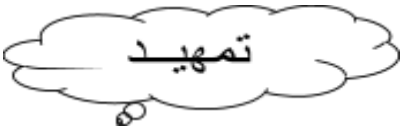
تمهيد

أولاً: مفهوم الدعوة:

الدعوة لغةً: جاء في اللغة الدَّعوة إلى الطعام: بالفتح، يقال: كنا في دعوة فلان ومدعاة فلان، وهو مصدر، والمراد بهما الدعاء إلى الطعام.

وداعية اللبن: ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده[1]، وتأتي الدعوة بمعان كثيرة، منها:

1- الاستغاثة، كقولك للرجل: إذا لقيت العدو خاليًا فادع المسلمين. فالدعاء هنا بمعنى الاستغاثة.

2 – العبادة، كما في قوله تعالى: [illegible] [غافر: 60]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «الدعاء هو العبادة»[2] .

3 – المناداة، دعا الرجل دعوًا ودُعاءً بمعنى ناداه، والاسم الدعوة، ودعوتُ فلانًا، أي صحتُ به، واستدعيته، والدعاة: قوم يدعون إلى بيعة هدىً أو ضلالةً، واحدهم: داع. ورجل داعية: إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، أدخلت الهاء فيه للمبالغة. والنبي صلى الله عليه وسلم داعي الله تعالى ومنه قوله تعالى: [illegible] [الأحزاب: 46]، معناه: داعيًا إلى توحيد الله وما يقرب منه[3].

والدعوة يراد بها في الاصطلاح أحد معنيين:

1 – المعنى الأول: الإسلام.

---

[1]() مختار الصحاح للرازي: ص: (206).

[2]() أخرجه أبوداود: (1/551رقم1481)، كتاب الوتر، باب الدعاء، والترمذي: (5/211 رقم2969)، كتاب التفسير، باب سورة البقرة، وابن ماجة: (5/5 رقم3828)، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، وهو حديث صحيح، صححه الترمذي.

[3]() ينظر: لسان العرب لابن منظور: فصل الدال، حرف الواو والياء، المجلد التاسع، (18/ 281-284) بتلخيص.

2 – المعنى الثاني: «نشر هذا الدين للناس». وفي المجال الدعوي يقصد هذا المفهوم على العموم. كما قال تعالى: [يوسف: 108]، ولمقصود بالدعوة إلى الله هنا الدعوة إلى دينه.

وهذا المعنى الأخير هو المراد بالدعوة في هذا البحث، سواء كانت الدعوة إلى الإسلام وترك الكفر، أو الدعوة إلى الطاعة وترك المعصية، أو الدعوة إلى العمل الفاضل وترك المفضول.

ثانيًا: موضوع الدعوة:

إن موضوع الدعوة إلى الله تعالى هو الإسلام الذي هو الخضوع والاستسلام والانقياد لله رب العالمين، والذي عبّر عنه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل حين سأله عن الإسلام فقال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج** البيت إن استطعت إليه سبيلًا»[4].

وهذا يعني أن موضوع الدعوة هو: الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، ومن ثم الدعوة إلى تطبيق الشريعة بكاملها من العبادات والأخلاق والآداب والسلوك والاستقامة، ونبذ الشرك والكفر والنفاق وعموم المعاصي والآثام وغيرها.

ثالثًا: أهداف الدعوة :

يمكن الوصول إلى معرفة أهداف الدعوة من النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، والتي تتجلى في الأمور الآتية:

1 – تحقيق رضا الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى:

[4]() أخرجه البخاري: (1/20رقم51)، كتاب الإيمان، باب (39)، ومسلم: (1/36رقم8)، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام.

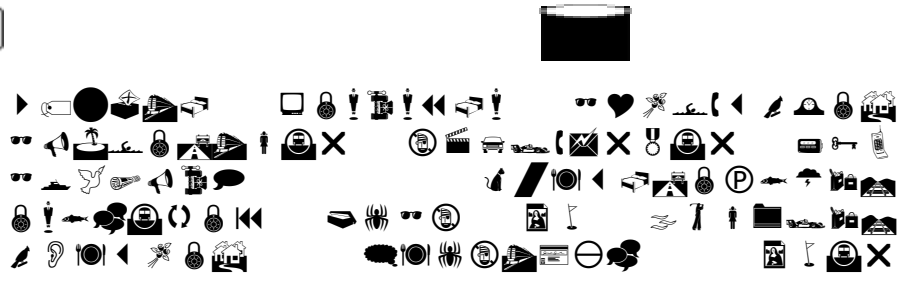

[الإنسان: 7 – 9].

2 – نشر الإسلام في الأرض، لقوله تعالى:

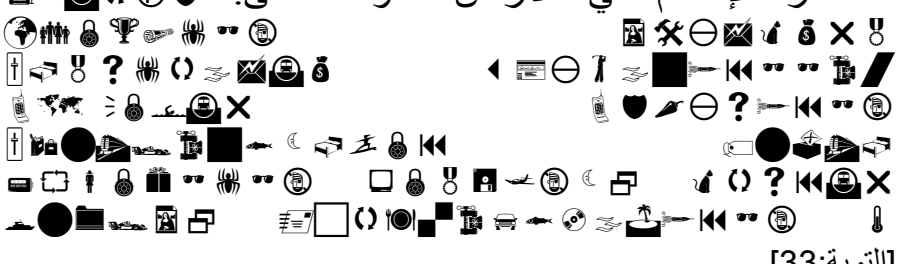

[التوبة:33].

3 – تصحيح العقيدة عند الناس، لأنه الأصل الذي إذا صلح، صلح سائر الأعمال وإذا فسد، فسد سائر الأعمال، وقد كان من أول أهداف دعوة الرسل جميعًا عليهم السلام تصحيح العقيدة، لقوله تعالى:

[الأنبياء: 25]، وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا ط حين بعثه إلى اليمن أن يدعو الناس إلى توحيد الله تعالى قبل دعوتهم إلى أي شيء آخر فقال: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»[5].

4 – القيام بالفروض والعبادات المتمثلة في أركان الإسلام، وتصحيح ما يشوبها أحيانًا من البدع والزيادات، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا الهدف تاليًا للعقيدة في وصيته لمعاذ ط حين بعثه إلى اليمن، حيث قال: «فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس

---

[5] () أخرجه البخاري: (5/206رقم4347)، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، ومسلم: (1/50رقم19)، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[6].

5 – تصحيح السلوك والأخلاق، لقوله تعالى:
[آل عمران: 164].

وقد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع على المشركين، فقال: «إني لم أبعث لعّانًا وإنما بُعثتُ رحمة»[7].

6 – القيام بمهمة البلاغ: وهو إيصال دعوة الله إلى الناس بالحجة والبيان، لقوله تعالى:
[الشورى: 48].

وخلاصة الكلام في أهداف الدعوة أنها: نقل العباد من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد[8].

رابعًا: فضائل الدعوة إلى الله:

الدعوة إلى الله تعالى من أفضل القربات وأجلّ الأعمال، وقد أمر الله تعالى عباده إلى القيام بهذه العبادة في قوله:

---

[6] () أخرجه البخاري: (2/159رقم1496)، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد إلى الفقراء، ومسلم: (1/50رقم19)، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين.

[7] () أخرجه مسلم: (4/2006رقم2599)، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب.

[8] () سيأتي مزيد من التفصيل لأهداف الدعوة وتحريره في القاعدة الثانية.

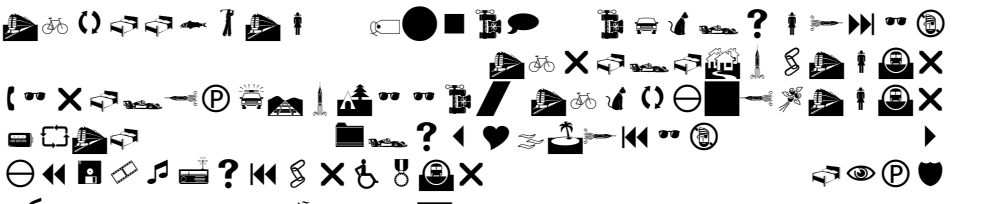

[آل عمران: 104]. ويمكن الإشارة إلى بعض فضائل هذه العبادة وآثارها من خلال النقاط الآتية:

1 – أنها ميراث النبي صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى:

[المائدة: 67].

2 – أن الله تعالى أثنى على الدعاة والعاملين في مجال الدعوة، فقال:

[فصلت: 33].

3 – الأجر الجزيل والثواب العظيم، جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي ط يوم خيبر: «انفُذْ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا خير لك من حُمْرُ النَّعم»(9).

4 – يكرم الداعية بمعية النبي صلى الله عليه وسلم لقيامه بمهمة الدعوة، لقوله تعالى:

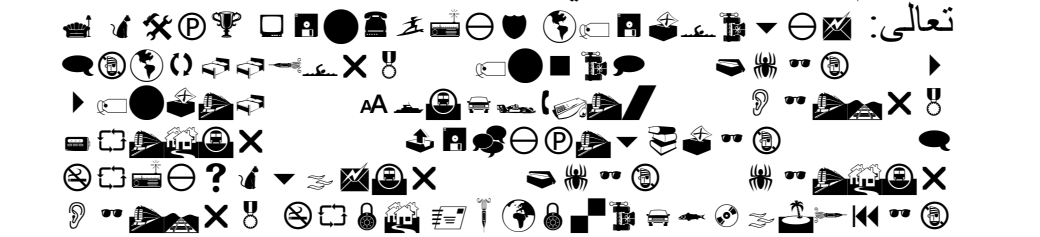

[يوسف: 108].

5 – يحصل بالدعوة إلى الله الإصلاح في الأرض، فتنتشر الفضيلة وتقل الرذيلة، وتصلح عقيدة الناس وسلوكهم، يقول الله تعالى على

---

(9) أخرجه البخاري: (4/58رقم2942)، كتاب الجهاد، باب فضل من أسلم على يديه رجل، ومسلم: (4/1872رقم2406).

لسان شعيب عليه السلام: [illegible] [هود: 88].

6- استمرار الأجر فهي من أعظم الصدقات الجارية، جاء في الحديث الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيء»[10].

هذا غيض من فيض في فضائل الدعوة وآثارها الحسنة على الفرد والمجتمع، لأن فضائلها لا تعدّ ولا تحصى.

خامسًا: مقومات الدعوة:

للدعوة إلى الله تعالى مقوّمات كثيرة تجعلها تحقق أهدافها المنشودة، ومن أهم هذه المقوّمات:

1 – العلم:

ويقصد به العلم الشرعي، وهو العلم بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني العلم بتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته في أسمائه وصفاته، والعلم بأحكام الحلال والحرام، والعلم بالواجبات والفروض وغيرها.

وتتضح أهمية العلم الشرعي في أن أول سورة نزلت من القرآن الكريم تأمر بالتعلم والقراءة والكتابة، قال الله تعالى: [illegible] [العلق: 1-5].

وتوفر العلم الشرعي مطلب ضروري ومقوّم رئيس من أجل العمل في الميدان الدعوي، لأنه يرشد إلى الدين الصحيح في العقيدة

---

[10]() أخرجه مسلم: (4/2060رقم2674)، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة.

والعبادة والأخلاق وسائر الأعمال الصالحة، والجهل بالدين يؤدي إلى ظهور الانحرافات والتناقضات في العقيدة والعبادات، لذا أثنى الله تعالى على أهل العلم بقوله: [الزمر:9]، وقال جل ثناؤه: 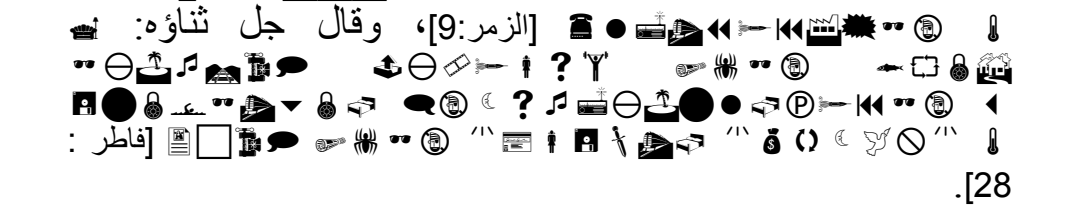 [فاطر : 28].

2 – الإخلاص:

كما إن إخلاص النية لله تعالى من أهم المقوّمات للقيام بالدعوة إلى الله تعالى وتحافظ على مسارها في الاتجاه الصحيح، يقول جل ثناؤه: [البينة: 5]، والله تعالى يبارك في كل جهد يبذل من أجله، فيتكفل بحفظه وفلاح القائمين عليه، لذلك أمر الله عباده بإخلاص العمل له وحده بغض النظر عن النتائج التي تؤول إليه، يقول تبارك وتعالى: [هود : 51].

أما الذي يعمل لغير الله، للشهرة أو المال أو المناصب وغيرها من المقاصد الدنيوية، فإن الله يجازيه حسب نيته وغايته، فيحرم من الأجر والثواب في الآخرة، يقول عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[11].

فليحذر الدعاة والمصلحون وأهل العلم من انحراف النية والقصد،

---

[11]() أخرجه البخاري: (1/2/رقم1)، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان الوحي.

والذي يحدد نجاح الدعوة أو فشلها، لأن الدعوة من العبادات التي يتقرب بها العبد إلى الله، فلا بد أن يخلص النية لله جلّ ثناؤه.

3 – وضوح الرؤية والهدف:

ومن مقوّمات نجاح الدعوة إلى الله تعالى وضوح الرؤية لدى الداعية وتحديد الهدف المتمثل في إيصال الإسلام إلى الناس، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، اقتداء بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، الذين كانوا يبينون الهدف من دعوتهم، يقول الله تعالى: [النحل: 36]. فالهدف واضح ومبين وهو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه من الأصنام والأوثان وجميع أشكال الآلهة الأخرى.

وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم هذه الرؤية في دعوته التي دامت ثلاثة وعشرين عامًا، فعن ابن عباس م قال: لـمّا نزلت هذه الآية 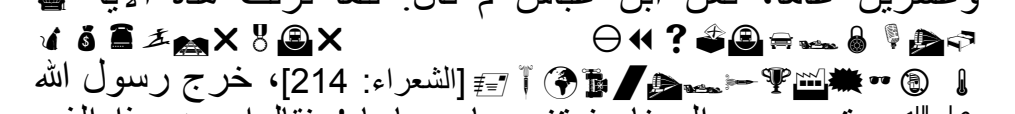 [الشعراء: 214]، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه. فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبدالمطلب، فاجتمعوا إليه». فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدّقي؟» قالوا: ما جرّبنا عليك كذبًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». قال: فقال أبو لهب: تبًّا لك أما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام. فنزلت هذه السورة: [المسد: 1].

وهكذا كانت دعوته عليه الصلاة والسلام واضحة للجميع، من

غير غموض أو أسرار أو إخفاء للحقائق، كما هي حال سائر العقائد والمذاهب والأديان. وقد تجلى ذلك أيضًا حين كان يعرض عليه الصلاة والسلام الدعوة على الوفود القادمة إلى مكة أو حين يراسل الملوك والقياصرة حيث يقول عليه الصلاة والسلام في إحدى رسائله إلى هرقل: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله – إلى قوله – اشهدوا بأنا مسلمون»[12].

4 – سلامة الوسيلة من الانحراف:

ومن المقوّمات التي تحافظ على سلامة الدعوة ونجاحها أن تكون الوسائل والآليات المستخدمة مشروعة، فلا تبلّغ دعوة الله بالغناء والعزف على الموسيقى والكذب والزور والغيبة والنميمة وغيرها من المعاصي، كما لا تبلغ دعوة الله بمال حرام من السرقة أو الرشوة أو الغش أو غيرها من المحرمات المالية، وقد وضع أهل العلم لذلك قاعدة فقهية مفادها: أن الغاية لا تبرر الوسيلة، كما ستأتي إن شاء الله تعالى.

5 – البدء بالأهم فالمهم:

إن فقه الأولويات من الأركان المهمة التي تقوم عليه الدعوة إلى الله، وهو القيام بالأهم من الأعمال ثم المهم، فلا تقدم الأمور المهمة على الأهم منها، وكان عليه الصلاة والسلام يأخذ بهذا المنهج، ورسمه لمعاذ ط ذلك حين أوصاه أن يبدأ بتعليم القوم الذي بعثه إليهم بأمور العقيدة وتوحيد الله تعالى، التي تعدّ من أولويات هذا الدين بل في مقدمتها، ثم وصّاه عليه الصلاة والسلام بالانتقال من هذا الأهم إلى المهم المتمثل في العبادات والفروض، حيث قال النبي ﷺ في هذه الوصية: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله،فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم

---

[12]() أخرجه البخاري: (1/5رقم7)، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم: (3/1393رقم1773)، كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل.

أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[13].

6 – التخطيط السليم في الدعوة:

إن العمل في الدعوة يحتاج مثل أي عمل آخر إلى التخطيط السليم قبل القيام بأي خطوات عملية، وهذا كان شأن النبي ﷺ في سيرته القولية والعملية، فقد اختار في واقعة الهجرة أبا بكر ط ليكون صاحبًا له في الطريق، وهاجر سرًّا وأخذ طريق البحر، واختفى فترة في غار ثور، وكان يتحرى أخبار قريش، إلا أن وصل إلى المدينة بسلامة دينه وحياته، وقد فكّر عليه الصلاة والسلام وخطط لهذه الهجرة من قبل، ولم تكن أمرًا عفويًا حدث فجأة من غير تخطيط أو تفكير.

7 – المحاسبة والتقويم:

وتعني أن تكون هناك مراقبة دائمة للعمل الدعوي من جوانبه المختلفة، في الأشخاص والأدوات والوسائل وفي طبيعة العمل وكيفيته، واستدراك نقاط الضعف والتقصير فيه بإصلاحها وتقديم الأفضل منها، كما يدخل في المحاسبة والتقويم القيام بمراجعات بين الفترة والأخرى للماضي الدعوي والاستفادة من الأخطاء السابقة للحدّ منها ومن آثارها في المستقبل.

سادسًا: سمات الداعية:

من أجل أن تنجح مسيرة الدعوة إلى الله، وتُؤتى ثمراتها يانعة، فلا بد للداعية أن يتحلى بخُلق الدعاة ويقتدي في ذلك بالنبي ﷺ، وفيما يلي بعض تلك الخلال والصفات التي ينبغي التحلي بها في العمل الدعوية:

1 – الإخلاص والصدق:

وقد سبق الحديث عن ضرورة إخلاص النية لله تعالى في العمل الدعوي بأن يكون كل حركات الداعية وسكناته لله تعالى وألا يشوبها شيء للدنيا وزخرفها، وأن يكون طلب الأجر والثواب من الله وحده،

---

[13]() سبق تخريجه.

كما قال الله تعالى: [illegible] [هود: 51].

2 – العلم الشرعي:

وقد سبق الإشارة إليه أيضًا في بيان مقوّمات الدعوة، حيث لن ينجح العمل الدعوي إلا أن يكون لدى القائمين عليه العلم الشرعي الكافي لبيان الإسلام بتشريعاته وأحكامه، يقول الله تعالى في شأن أهل العلم والفرق بينهم وبين أهل الجهل والهوى الذين يتبعون المتشابه من الآيات والأحكام: [illegible] [آل عمران: 7].

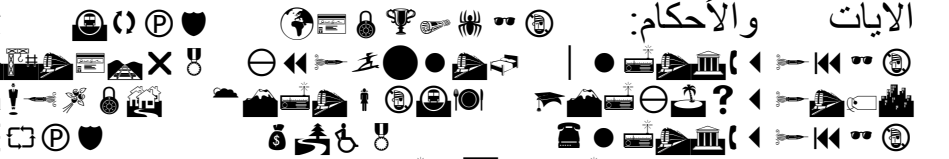

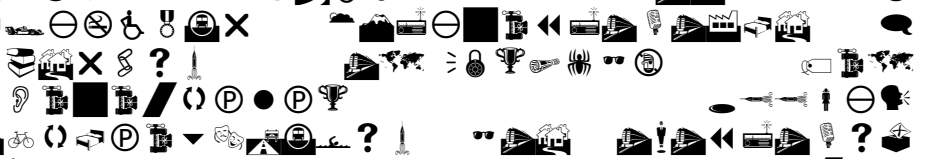

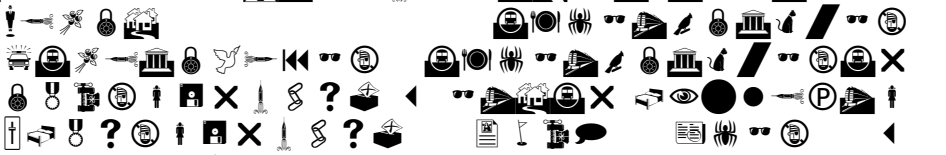

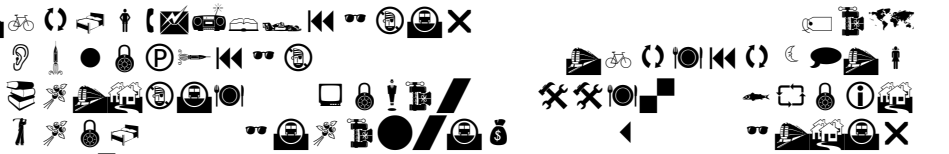

3 – الحلم والرفق:

ومن أهم ما ينبغي أن يتحلى به الداعية إلى الله الحلم والرفق في كل حركة أو سكن، فمن طبيعة الناس وفطرتهم أنهم يميلون إلى اللين والرفق في المعاملة، وينفرون من الشدة والغلظة فيها، تصديقًا لقوله تعالى: [illegible]

[آل عمران: 159].

وقد أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون ومخاطبته بالقول اللين رغم طغيانه وجبروته، فقال جل ثناؤه:

[طه: 43 – 44].

4 – الصبر والتحمل:

إن الصبر في طريق الدعوة وتحمّل مشاقها مطلب ضروري ينبغي توافره في الداعية، فالتسرع والاستعجال والانفعال والتضجر كلها من مناقضات عمل الدعوة إلى الله، فمن أراد أن يسير في هذه الطريق لا بد أن يعرف معالمها ويتصور عقباتها، حتى يتزوّد بسلاح الصبر والتحمل، فالتحديات كثيرة التي تقف في وجه الدعوة وتحاول وأْدَها، فلا بد من الصبر لصدّها، وكذلك فإن دعوة الناس أمر يتطلب الصبر والمصار، لاختلاف أطباعهم وقدراتهم وتصوراتهم.

وقد تعرّض النبي صلى الله عليه وسلم لشتى أنواع الأذى والمعاناة، خلال مسيرته الدعوية، ولكنه ثبت على الطريق بالصبر والتقوى، حتى مكّنه الله تعالى ونصر دينه وأعلى كلمته، وكان الله تعالى يواسي نبيه عليه الصلاة والسلام ويأمره بالصبر فقال: [النحل:127]، وقال جل شأنه:

[البقرة: 155].

5 – التواضع وعدم الكبر:

وذلك اقتداء بالنبي ﷺ الذي كان يسلم على الصغير والكبير، والضعيف والمسكين، ويسأل عنهم، ويشاركهم في أفراحهم، ويواسيهم في أحزانهم، فعن أنس بن مالك ط قال: «كانت الأَمَة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»[14].

عن عبد الرحمن العائشي عن بنت لخباب ك، قالت: «خرج خباب في سرية فكان النبي ﷺ يتعاهدنا حتى كان يحلب عنزًا لنا، قالت: فكان يحلبها حتى يطفح أو يفيض»[15].

فكان على الداعية أن يتسم بهذه الصفة ليكسب حب الناس وقربهم وسهولة التواصل معهم، لأن الناس مجبولة على حب التواضع وكراهية الكبر.

6 – توافق القول مع العمل:

وهذه صفة مهمة للداعية، حيث إن واقعه يحدد مدى تأثيره على الناس وتأثّرهم به، فالداعية الذي يوفّق بين القول والعمل يعطي صورة عملية لإسلامه وما يدعو إليه، فحذر من مخالفة هذه الصفة، قال تعالى:

[الصف: 2-3]، وقال أيضًا:

[البقرة: 44].

7 – الوعي بحال المدعو:

كما ينبغي للداعية أن يكون على دراية كافية بحال المدعو، بحيث

---

[14] () أخرجه البخاري: (8/24رقم6072)، كتاب الأدب، باب الكبر.

[15] () مسند أحمد: (6/372رقم27097) وفي إسناده ضعف.

يختار الوقت المناسب للمدعو في التحدث إليه بالموضوع الذي يتلاءم مع حاله في ذلك الوقت، وكذلك يكون حصيفًا في اختيار المكان المناسب لهذا الأمر، وهذا كله يبقى على مدى فهم الداعية ووعيه في ممارسة العمل الدعوي في الزمن والمكان المناسبين له، وبناء على ذلك تتحدد النتائج على هذا العمل، سلبًا أو إيجابًا.

هذه الصفات وغيرها، ضرورية للداعية أثناء عمله الدعوي، ويتوقف عليها نجاح هذا العمل إلى حدّ كبير، وإن غياب بعض هذه الصفات يعرقل المسيرة الدعوية، بل يسيء إليها ويشوّه صورتها المشرقة.

□□□□□

[redacted]

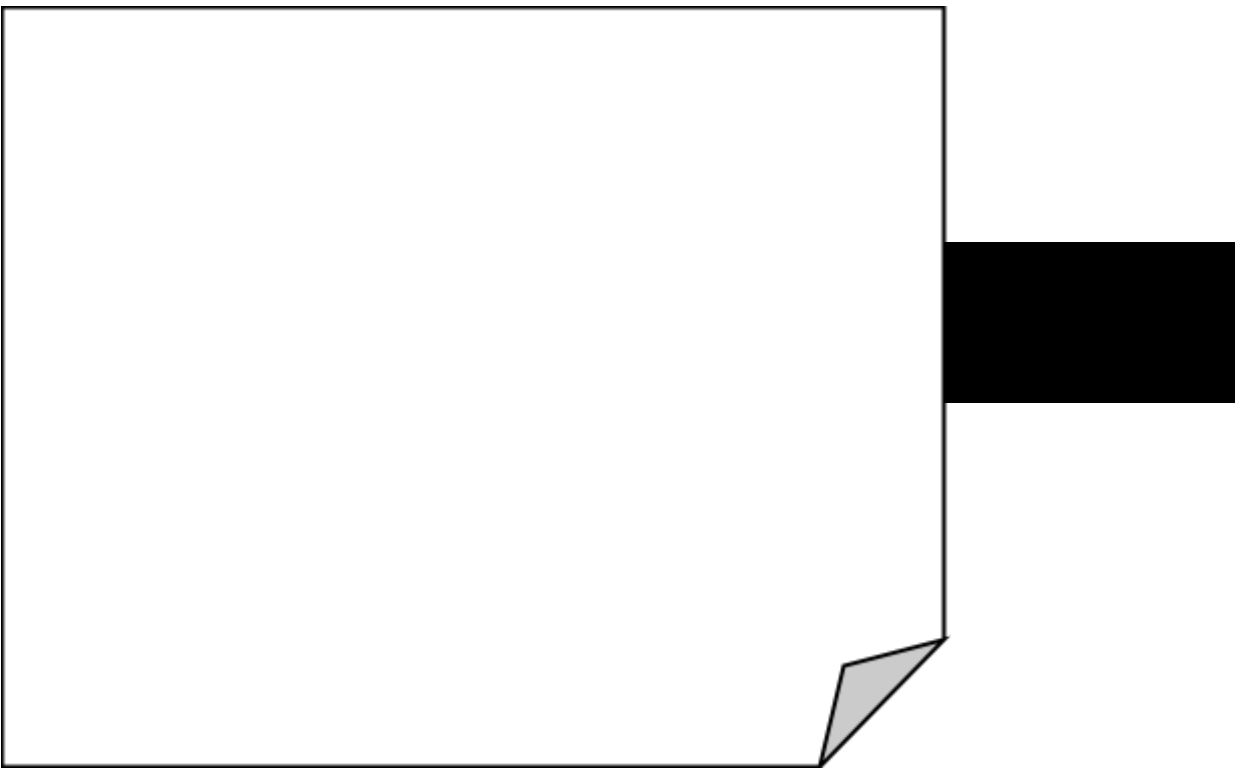

[redacted]

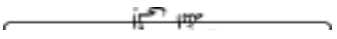

مدخل:

(صلاح العمل مرتبط بصلاح القلب، وصلاح القلب مرتبط بصلاح النية، فاطلب النية للعمل قبل العمل).

فالعمل الذي لا يصحبه الإخلاص صورة بلا حياة، وجثة بلا روح، والله تعالى إنما يريد من الأعمال حقائقها لا رسومها وصورها، وجاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[16].

وليس تشديد الإسلام في طلب الإخلاص، وتأكيده على تجريد النية لله، وتصحيح الاتجاه إليه وحده: ضربًا من التشديد أو العبث، فإن الحياة نفسها لا تستقيم ولا ترقى إلا بالمخلصين، وأكثر ما يصيب الأمم والجماعات من النكبات والكوارث القاصمة إنما يجره عليها أناس لا يرجون الله والدار الآخرة...

إن الإسلام لا يرضى للمسلم أن يعيش بوجهين: وجه لله، ووجه لشركائه، ولا أن تنقسم حياته إلى شطرين: شطر لله وشطر لغيره، فالإسلام يرفض الثنائية المقيتة، والازدواجية البغيضة، التي نشهدها في حياة المسلمين اليوم، فتجد الرجل مسلمًا في المسجد أو في شهر رمضان، ثم هو في حياته، أو في معاملاته، أو في مواقفه إنسان آخر.

إن الإخلاص هو الذي يوحد حياة المسلم، ويجعلها كلها لله، فصلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين.

وإذا كان (الإخلاص) يمثل هذه الحقيقة العميقة، ويترتب عليه نجاح الإنسان في حياته الدنيوية ومنها الدعوية، وحياته الأخروية، فنقف معه بشيء من البسط في الكلمات الآتية:

معنى المقاصد والنيات:

يستعمل العلماء القصد والنية بمعنى واحد.

---

[16]() أخرجه مسلم: (4/1986رقم6543)، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره.

قال الخطابي في تعريف النية: «هي قصدك الشيء بقلبك، وتحرى الطلب منك له» [17].

وقال الزركشي في قواعده: «حقيقة النية ربط القصد بمقصود معين، والمشهور: أنها مطلق القصد إلى الفعل».

وقال الماوردي: «النية قصد الشيء مقترنًا بفعله، فإن قصده وتراخى عنه فهو عزم»[18].

وقال القرافي: «هي قصد الإنسان بقلبه ما يريده بفعله»[19].

وقال البيضاوي: «النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض، من جلب نفع، أو دفع ضرر، حالًا أو مآلًا، والشرع خصها بالإرادة المتوجهة نحو الفعل ابتغاء لوجه الله، وامتثالًا لحكمه»[20].

ولا ريب أن النية التي صحت بها الأحاديث النبوية –وستأتي- إنما تتمثل في الإرادة الجازمة المصممة المتوجهة نحو الفعل، خيرًا كان أم شرًا، واجبًا أو مستحبًا، أو محظورًا، أو مكروهًا، أو مباحًا، ولهذا تكون أحيانًا نية صالحة محمودة، وأحيانًا نية سيئة مذمومة، حسب المنوى: أي شيء هو؟ وحسب المحرك الباعث: أهو الدنيا أم الآخرة؟ أهو وجه الله أم غيره؟

فليست النية إذن مجرد خاطرة تطرأ على القلب لحظة ثم لا تلبث أن تزول، فلا ثبات لها، يقول صلى الله عليه وسلم: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به،أو تتكلم به»[21]، وهذا يؤيد ما قاله بعضهم من أن النية ليست مجرد الطلب، بل الجد في الطلب[22].

أهمية النية في تحقيق الإخلاص:

لا يتحقق الإخلاص في العمل إلا بعنصرين أساسيين:

17() أعلام الحديث للخطابي: (1/112).

18() إتحاف السادة المتقين: (27،26،10).

19() الذخيرة: (1:134).

20() فتح الباري: (1:19).

21() أخرجه البخاري: (1/71رقم2528)، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاق والطلاق، ومسلم: (1/116رقم 331)، كتاب الإيمان، باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس.

22() وتطلق النية ويراد بها تمييز الفعل وإن كانت صورة العمل واحدة مثل التفريق بين صلاتين متحدثين في الأفعال، فالذي يميز بينهما هو النية، وهذا المعنى ليس المقصود بالبحث هنا، وإنما ما ذكر وهو الإخلاص.

الأول: استحضار النية فيه، فإنما الأعمال بالنيات، ومن أدى العمل أداء آليًا بغير نية طيبة، لم يدخل دائرة المخلصين.

والثاني: تجريد النية من الشوائب الذاتية والدنيوية، حتى تخلص لله سبحانه، فإن الله لا يحب العمل المشترك، ولا القلب المشترك، فالعمل المشترك لا يقبله الله تعالى، والقلب المشترك كذلك، جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: قال الله عزَّ وجل: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملًا أشرك فيه غيري فانا منه بريء وهو للذي أشرك»[23].

إخلاص النية أساس القبول:

إن أي عمل يقوم به المسلم في الحياة - فضلًا عن الدعوة إلى الله - لا يكون مقبولًا عند الله عز وجل، ولا يكتب في سجل الحسنات إلا إذا أقيم على ركنين – بعد الإيمان بالله -:

أولهما: الإخلاص، وتصحيح النية.

وثانيهما: موافقة السنة ومنهاج الشرع.

وبالركن الأول تتحقق صحة الباطن وبالثاني تتحقق صحة الظاهر، وقد جاء في الركن الأول قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[24]، فهذا هو ميزان الباطن، وجاء في الركن الثاني قوله ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[25]، أي: مردود على صاحبه، وهذا ميزان الظاهر.

وقد جمع الله الركنين في أكثر من آية في كتابه الكريم، قال تعالى: 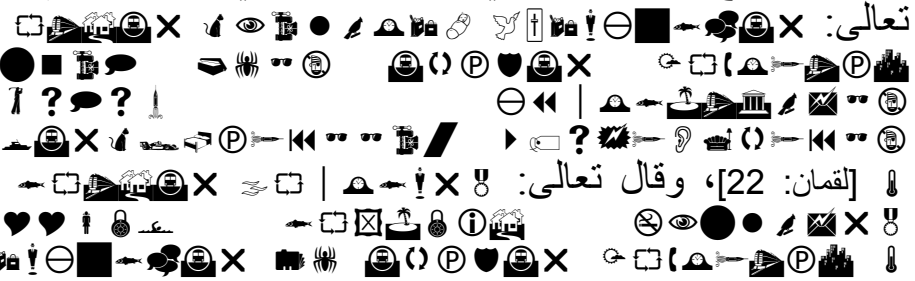 [لقمان: 22]، وقال تعالى:

---

[23] () أخرجه مسلم: (4/289رقم7475)، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك غير الله في عمله.

[24] () سبق تخريجه.

[25] () أخرجه مسلم: (1/22رقم1718)، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، وأصله متفق عليه بلفظ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد».

[النساء: 125].

وإسلام الوجه لله: إخلاص القصد والعمل له.. والإحسان فيه أداؤه على الصورة المرضية شرعًا، ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته.

قال الفضيل بن عياض: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة... ثم قرأ الفضيل قوله تعالى: [illegible] [الكهف: 110][26].

وقال ابن مسعود ط: «لا ينفع قول إلا بعمل، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا بما يوافق السنة»[27].

وبذلك يتبين مدى حاجة الأعمال الظاهرة إلى النيات، فالعبادات التي تخلو من النية لا قيمة لها أبدًا، كالعبادات التي يؤديها المرء نسيانًا أو سهوًا، أو هو نائم، أو غافل.

والعبادات التي تنبعث بنية غير صادقة لا تعتبر باطلة فحسب، بل يعاقب صاحبها بسبب قصده الفاسد.

فالعبادات التي يقوم بها المراؤون والمنافقون وعباد الدينار والدرهم وزرها عظيم، وحسابها شديد، يقول تعالى: [illegible] [الفرقان: 23].

ولذلك رتب الرسول صلى الله عليه وسلم الثواب والمغفرة في أكثر من عمل على القيام بالأعمال بنية صالحة، منها على سبيل المثال قوله صلى الله عليه وسلم: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[28].

---

[26]() ينظر: علم الحديث لابن تيمية: ص: (172،183).

[27]() العدة: (1:8).

[28]() أخرجه البخاري: (1/16رقم38)، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابًا الإيمان، وكتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، ومسلم: (1/523رقم760)، كتاب الصلاة، باب الترغيب في قيام رمضان.

وقوله ﷺ: «من اتبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا وكان معه حتى يصلي عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد...»[29].

وقوله ﷺ: «من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[30].

فهذه أعمال متنوعة وغيرها كثير، الأجر متوقف فيها على صدق النية وسلامة المقصد، ومما يدل على ذلك صراحة قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[31].

ذلك أن النية رأس الأمر وعموده وأساسه واصله الذي عليه يبنى، فإنها روح العمل وقائده وسائقه والعمل تابع لها يبنى عليها، يصح بصحتها، ويفسد بفسادها، وبها يستجلب التوفيق، ويعدمها الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة، فكم بين مريد بالفتوى وجه الله ورضاه والقرب منه وما عنده، ومريد بها وجه المخلوق ورجاء منفعته وما يناله منه تخويفًا أو طعمًا فيفتي الرجلان بالفتوى الواحدة، وبينهما في الفضل والثواب أعظم مما بين المشرق والمغرب، هذا يفتى لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر، ورسوله هو المطاع، وهذا يفتى ليكون قوله هو المسموع، وهو المشار إليه، وجاهه هو القائم، سواء وافق الكتاب والسنة أو خالفهما، فالله المستعان.

وقد جرت عادة الله التي لا تبدل، وسنته التي لا تحول، أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة في قلوب الخلق وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيته ومعاملته لربه، ويلبس المرائي اللابس ثوبي الزور من المقت والمهانة والبغضة ما هو لائق به، فالمخلص له المهابة والمحبة، وللآخر المقت والبغضاء)[32].

أهمية النية في القرآن الكريم:

إذا كانت النية بهذه الأهمية التي ذكرنا بعضًا منها فيما مضى، فمبعثها اهتمام القرآن الكريم والسنة المطهرة بأمر النية.

---

[29] () أخرجه البخاري: (1/18رقم47)، كتاب الإيمان، باب اتباع الجنائز من الإيمان.

[30] () أخرجه البخاري: (4/34رقم2853)، كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرسًا في سبيل الله.

[31] () سبق تخريجه.

[32] () إعلام الموقعين: (4:199).

لقد عني القرآن الكريم بالنية كثيرًا، ووردت بعبارات مختلفة مثل: إرادة وجه الله، أو إرادة الدار الآخرة، أو ابتغاء وجه الله، او ابتغاء مرضاته، أو الإنابة أو الإخلاص، أو في سبيل الله... إلخ.

يقول الله تعالى:
[آل عمران: 145].

ويقول تعالى:
[الشورى : 20].

ويقول تعالى:
[الإسراء: 18-19].

فهذه الآيات الكريمة تقسم الناس قسمين: مريد للدنيا، بمعنى أنه ليس له هدف سواها، ومصيره ما ذكرت الآية الكريمة: جهنم.

ومريد للآخرة، الذي جعلها هدفه، وسعى لها سعيها، فسعيه مشكور، وعمله مأجور، ومصيره الفوز بالجنة، والسعادة برضوان الله عز وجل.

ولذلك جاء الحث في القرآن الكريم على إرادة الآخرة: وهو الإخلاص.

يقول الله تعالى حثًا على التخلق بهذا الوصف والتحلي بهذا السلوك في كل عمل وفعل: [الزمر: 2].

ويقول سبحانه: [البينة: 5].

وكم أشاد القرآن الكريم بالمخلصين الذين لم يريدوا بأعمالهم إلا وجه الله تعالى يبتغون مرضاته، ولا يركضون وراء الناس وثنائهم.

من هؤلاء: الأبرار الذين يطعمون الطعام لوجه الله، لا يريدون من أحد جزاء ولا شكورًا وهم الذين قال الله فيهم:

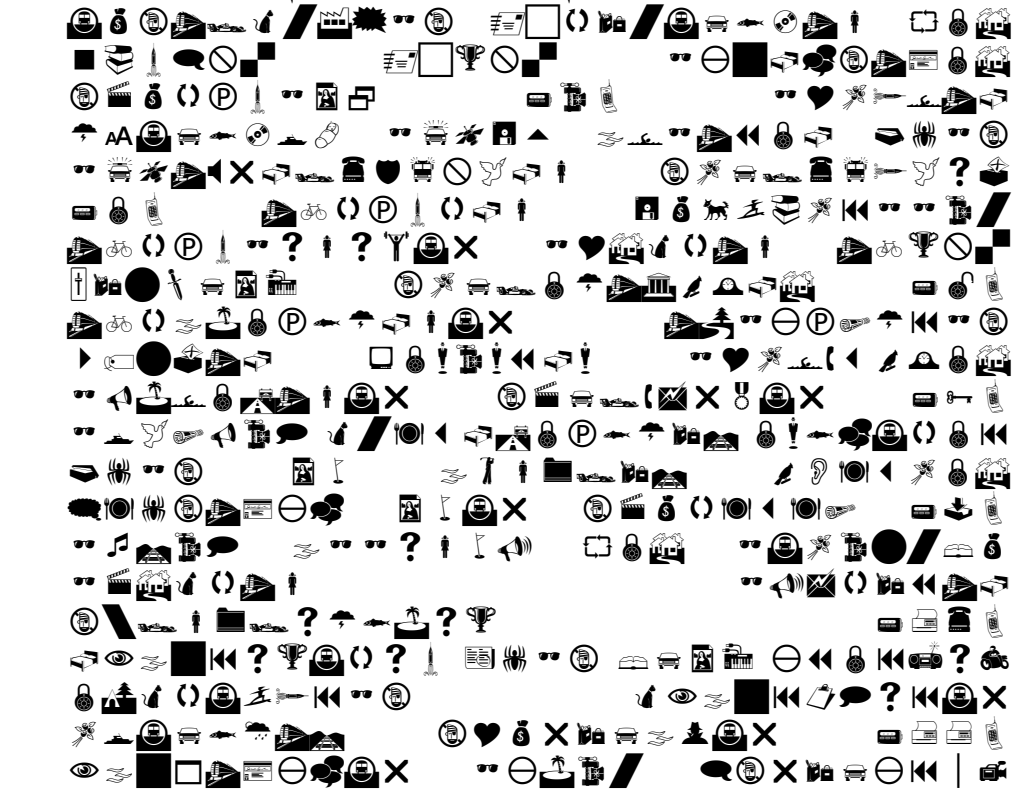

[الإنسان: 5-12].

وعليه فيجب على المسلم أن يبتغي بعمل وجه الله سبحانه وتعالى، وبذلك يرجو قبوله عند الله، والمثوبة عليه في الآخرة.

أهمية النية في السنة:

في السنة النبوية أحاديث كثيرة تشيد بفضل النية والإخلاص، مظهرة ما لها من أثر على الأعمال والعاملين، وهذا عرض لبعض النصوص في هذا الباب:

1 ـ النية مصدر قبول الأعمال:

روى النسائي بإسناد جيد عن أبي أمامة الباهلي، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ «لاشيء له»، ثم قال: «ألا إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغى به وجهه»[33].

إن نوايانا هي التي تشكل أعمالنا وتوجهها، والعمل مهما تكن ضخامته وخطره، لا يكون جليلًا ولا يكتب له القبول الحق إلا بقدر ما تكون النوايا جليلة وصادقة، وما جاء عن الرسول ﷺ في وصيته لمعاذ حين وجهه إلى اليمن: «أخلص دينك يكفك العمل القليل»[34].

2ـ الجزاء على العمل يتنوع بتنوع النية:

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ط عن النبي ﷺ أنه قال: «الخيل ثلاثة، ففرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان، فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله حسنات في ميزانه يوم القيامة، وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها فهي تستر من فقر»[35].

---

[33] () أخرجه النسائي: (6/25رقم3140)، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر.

[34] () أخرجه الحاكم: (4/341رقم7844)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعقب الذهبي بقوله: لا، يعني غير صحيح. واستشهادنا به هنا لمعناه، فالمعنى صحيح.

[35] () أخرجه أحمد: (1/395رقم3756)، وقال الهيثمي في المجمع: (5/261،260)، رواه أحمد ورجاله ثقات، فإن كان القاسم بن حسان سمع من ابن مسعود، فالحديث صحيح، قلت في سنده: شريك بن عبد الله النخعي، وهو سيء الحفظ، لكن له شواهد تقويه.

ومن ثم وجب على المؤمن – خاصة الداعية - أن يحسن نيته، فإن ما افترق الناس في غالب أحوالهم إلا من هذا الباب، لأن الغالب على بعضهم تقارب أفعالهم، ثم إنهم يفترقون في الخيرات والبركات بحسب مقاصدهم وتنمية أفعالهم.

3- النية الصالحة تجعل العادة عبادة والمباح طاعة:

إن الإخلاص والنية الصالحة هما (إكسير) العمل، الذي إذا وضعا على أي عمل ولو كان من المباحات والعادات حوله إلى عبادة وقربة لله تعالى.

فعن أبي ذر ط أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»([36]).

قال القرطبي: فيه دليل على أن النيات الصادقات تقلب المباحات إلى الطاعات([37]).

4- صدق النية يثمر نجاح العمل ولو وقع خطأ أو لم يتم:

عن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس ن، قال: كان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فجئت فأخذتها، فأتيته بها، فقال: والله ما إياك أردت، فخاصمته إلى رسول الله ﷺ، فقال: «لك ما نويت يا يزيد، ولك ما أخذت يا معن»([38]).

وعن أبي كبشة الأنماري ط أنه سمع النبي ﷺ يقول: «...إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلمًا، فهو يتقى فيه ربه، ويصل

---

[36]() أخرجه مسلم: (2/697رقم1006)، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من أنواع المعروف.

[37]() المفهم: (3،522).

[38]() أخرجه البخاري: (2/138رقم1422)، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على ابنه وهو لا يشعر.

فيه رحمه، ويعلم أن لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرها سواء...»[39].

5- صدق النية يثمر للعبد كفاية الله ومعونته:

من بركات النية الخالصة أن صاحبها يستجلب عون الله له، وقرب الله منه، ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ط، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ومن أخذ أموال الناس يريد أدائها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»[40].

وفي رواية ابن حبان والحاكم من حديث ميمونة: «ما من أحد يدان دينًا يعلم الله أنه يريد قضاءه إلا أداءه الله عنه في الدنيا»[41].

وقد جاء عن عمر ط في رسالته الشهيرة في القضاء قوله: «فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله».

قال ابن القيم في شرح هذه الكلمات: «هذا شقيق كلام النبوة، وهو حري بأن يخرج من مشكاة المحدث الملهم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومن أحسن الإنفاق منهما نفع غيره، وانتفع غاية الانتفاع، فأما الكلمة الأولى فهي منبع الخير وأصله، والثانية أصل الشر، فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى، وكان قصده وهمه وعمله لوجهه سبحانه كان الله معه، فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان لله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجوا؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟»[42].

وفي السنة نصوص كثيرة توضح قدر النية وتظهر فضل الإخلاص لكننا نكتفي بما ذكرناه، ففيه الخير والكفاية.

---

[39] () أخرجه الترمذي: (4/562رقم2325)، كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا أربعة نفر، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

[40] () أخرجه البخاري: (2/139رقم2387)، كتاب الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أدائها أو إتلافها.

[41] () موارد الظمآن، كتاب البيوع ص: (282)، ومستدرك الحاكم: (2،27).

[42] () إعلام الموقعين: (2،178).

مواصفات الدعاة المخلصين:

إذا كان فيما سبق بيان لقدر الإخلاص وقيمة النية، فإنه يجب على الدعاة أن يدركوا عظم أمر الإخلاص ويستشعروا الحقائق التالية:

أولًا: أن يقصدوا من دعوتهم وجه الله تعالى، وأن يحذروا المقاصد الدنيوية المتنوعة.

ثانيًا: أن تكون جميع تصرفاتهم وأعمالهم وسلوكهم الاجتماعي على وفق شريعة الله.

ثالثًا: أن يحاسبوا أنفسهم بشكل دائم ومستمر، وأن يتساءلوا ماذا يريدون من تبليغ الدعوة؟ وماذا يقصدون من دعوة الناس؟

رابعًا: أن ينظروا إلى أفعالهم هل هي مطابقة لأقوالهم ولسان حالهم؟

خامسًا: أن يحذروا مكائد الشيطان، ووساوس النفس والهوى، وفتنة العجب ومزالق الرياء[43]. فإن هذا من أكبر المزالق، وأعظم الأخطار.

سادسًا: أن يحسنوا الظن بالمسلمين، ولا يسيئوا الظن بهم وبأعمالهم، ففي الحديث: «إن أقوامًا بالمدينة خلفنا، ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر»[44].

فالدعاة إلى الله إذا أدركوا هذه الحقائق، واتصفوا بهذه المواصفات، ساروا صادقين في درب الإخلاص، ومضوا مخلصين في طريق الدعوة، وحقق الله سبحانه على أيديهم إصلاح البشر، وهداية الناس وبرئت ذممهم، بل إن الناس يتأثرون بهم، ويستجيبون لدعوتهم، ويقبلون هدي الله عز وجل طائعين مختارين.

لماذا كان الإخلاص ضرورة للدعاة؟:

إن العمل لنشر الإسلام وعودته لقيادة الحياة بعقيدته وشريعته وأخلاقه وحضارته، إنما هو عبادة وقربة إلى الله عز وجل من ناحية، وجهاد في سبيل الله من ناحية أخرى، وتجريد النية لله في هذه العبادة وذلك الجهاد: أمر أساس لقبول العمل ولنجاحه معًا، فالنية المدخولة تفسد العمل، وتلوث النفس، وتضعف الصف، وتحبط الأجر، والنية

---

[43]() مدرسة الدعاة: (1،136).

[44]() أخرجه البخاري: (4/31رقم2839)، كتاب الجهاد، باب من حبسه العذر من الغزو.

الصالحة، تصلح العمل، وتقوي العزم، وتفسح الطريق، وتعين على إزالة العقبات، قال تعالى: [النساء: 35]، فدل على أهمية الإرادة والنية في إنجاز المهمة المنشودة، فهي سبب توفيق الله تعالى وتأييده.

وقد كتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز ناصحًا له، فقال: «اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، ومن نقصت نيته نقص بقدره».

ولهذا السر بدأ الأمام البخاري كتابه «الجامع الصحيح» بهذا الحديث الذي عده بعض العلماء ربع الإسلام أو ثلثه: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى ما هاجر إليه»[45].

إن على المسلم العامل للإسلام أن يفتش في قلبه عن حقيقة نواياه وبواعثه، فإن كان فيها حظ للدنيا أو للشيطان، جاهد أن ينقى قلبه من دخله، وأن يجرد نيته لله، وأن ينذر نفسه محررًا لربه، كما قالت امرأة عمران [آل عمران: 35]، وهذه الكلمة من أم مريم (محررًا) توحي بأن سنة الله ألا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا من كل شركة محررًا من كل عبودية لغيره.

إن الحياة لا يسود فيها الحق، وينشر الخير، وتعلو كلمة الإيمان، وتخفق أعلام الفضيلة: بانحراف النوايا، ولا بطلب المغنم من الدنيا، ولا بالمرائين الذين لا يعملون إلا ليراهم الناس، ويسمعوا بهم، ويتحدثوا عنهم، ويشيروا إليهم بالبنان، بل ينتصر الحق والخير والإيمان والفضيلة بالمخلصين الذين يعتنقون المبادئ بإخلاص لله ورغب ورهب[46].

إن الداعية الحق لا يجري وراء المطامع، ولا يخطف بصره

---

[45] سبق تخريجه.

[46] النية والإخلاص: ص:(97-98) بتصرف.

بريق الشهرة، ولا يجذب قلبه سطوة الجاه والنفوذ... إن الدنيا ليست أكبر همه، ولا مبلغ علمه، إن أكبر همه أن يتقبله الله في عباده الصالحين، وجنده الصادقين، وحزبه المفلحين.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم :: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا طلبت الإخلاص، فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص»[47].

ويقول الغزالي : في كلام نفيس يسطر بماء من ذهب: بعد أن ذكر فتنة حبّ الجاه والظهور والشهرة والمحمدة عند الناس وبخاصة لدى الدعاة والعلماء: «وأشد الخلق تعرضًا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترى الواعظ يمنُّ على الله تعالى بنصيحة الخلق، ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعى أنه يفرح بما يسّر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه واعظًا، وانصرف الناس عنه، واقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذا لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين، أن انقياده للحق، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابًا، وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق، يغرق فيه الجميع، إلا الشاذ النادر، والفرد الفذ، وهو المستشفى في قوله تعالى:

---

[47]() ينظر: منزلة الإخلاص من كتاب مدارج السالكين.

[ص: 83][48].

إنها كلمات حرية بالتأمل من كل داعية، تغوص في أعماق النفوس، وتصارحها بخفاياها.

إن وضوح هذا الهدف أمر ضروري للعاملين في الدعوة، فقد يكون هدفهم تصحيح العقيدة أو نشر الشريعة، أو عودة مجد أو حضارة أو نحو ذلك من الأهداف التي يسعون إليها، ويحرصون على تحقيقها، ولكن هدف الأهداف، وغاية الغايات من وراء ذلك كله، هو: رضوان الله عز وجل.

النتائج المترتبة على مخالفة هذه القاعدة:

لا شك أنه يترتب على الانحراف عن هذه القاعدة الثمينة العظيمة آثار سلبية على الداعية والدعوة نفسها، أوجز بعضها فيما يلي:

1 - إن غياب الإخلاص - مع ما سبق - يعرض الداعية إلى الرد وعدم القبول، ويعرض الدعوة إلى التلاش والاضمحلال، ويورث في القلوب نوايا الدنيا بشهواتها، ويوقعها في شراك الشيطان وأعماله.

2 - كما يفتح عدم الإخلاص وتشعب النوايا الباب على مصراعيه لإتباع الشيطان، وأعداء الدعوة ليقدحوا في الدعوة نفسها فضلًا عن الداعية الذي انحرف قصده ومال بنيته يمينًا ويسارًا.

3 - وإن مخالفة هذه القاعدة قد ينشأ عنه مجموعة من الناس يندسون في صفوف الدعوة، كلامهم كثير، وعملهم قليل، يقلون عند الفزع، ويكثرون عند الطمع، يتخذون الدعوة قنطرة إلى مآربهم، وسلمًا إلى مطامعهم، متظاهرين بالتقوى، متوسلين بالقول المعسول، والحماس المفتعل، والملمس الناعم، وباطنهم خراب وقلوبهم هواء، وذلك شر ما تصاب به الدعوات الربانية، وقد حذَّر رسول الله ﷺ من ذلك حين قال: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أبيَ يغترون أم علي يجترئون؟ فبي حلفت: لأبعثن على أولئك منهم

---

[48]() إحياء علوم الدين: (4،369).

فتنة تدع الحكيم منهم حيرانًا»[49].

4 – ومخالفة هذه القاعدة يورث التحزب والتنافر وتبادل الاتهامات، وتشيع الدعاة إلى فرق وأحزاب، فكل يدعي أنه الصواب وغيره الخطأ، ويلمز ويغمز بالآخرين، ومن ثم فشل الدعوة نفسها، وعدم الوصول إلى أهدافها.

وأخيرًا: إن هذه القاعدة جدٌّ وليست هزلًا تحتاج إلى مصارحة ومكاشفة للنفس – كما سبق في كلام الغزالي : – ومراجعة بين وقت وآخر كما قال سفيان الثوري :: «ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي».

هذه هي القاعدة الأولى، ومنطلق الدعوة، فليبدأ الداعية بتحريرها وتجريدها. حقق الله تعالى ذلك.

□□□□□

[49]() أخرجه الترمذي: (4/604رقم2404)، كتاب الزهد، باب خاتلي الدنيا بالدين، وفي سنده يحيى بن عبد الله بن موهب تكلم فيه شعبه، وذكر الترمذي شاهدًا له من حديث ابن عمر (2405)، وقال: حديث حسن غريب.

القاعدة الثا
وضوح الرؤي

مدخل: (قيمة كل دعوة، وواجهة كل بلاغ في الهدف الذي يسعى الداعي إلى تحقيقه من وراء دعوته، ويرمي إلى تحصيله من خلال بلاغه، وكلما كان الهدف محددًا، والرؤية واضحة كان السير صحيحًا والعمل متزنًا والثمرة يانعة، وغاية الدعوة: رضي الله تعالى، وتحقيق عبودية الله في أرضه، وعمارة الكون عن طريق البلاغ).

تحديد الهدف:

إن تحديد الهدف من أي عمل يقوم به الإنسان هو الخطوة الأولى للتخطيط الناجح، وذلك لأنه أعني ـ تحديد الهدف ـ يتوقف عليه نوع الدراسة الموصلة إليه كما يترتب عليه نوعية الوسائل التي يجب استعمالها لبلوغه، ومثل الذين يعملون من غير أن يحددوا أهدافهم، كمثل إنسان يضرب في الصحراء دون أن يكون معه دليل يرشده أو قائد يهديه، ولا شك أنه سيظل يسير حتى يمل السير، ويضرب في الأرض حتى يضطرب ويختل، والله عز وجل قد علمنا ذلك فلما أراد أن يخلق آدم عليه السلام حدد الغاية من خلقه فقال عز من قائل للملائكة: [البقرة: 30]، وقال: [الذاريات: 56]، ثم وضح الوسائل المؤدية إلى ذلك بالشريعة التي شرعها لعباده، كما حدد -سبحانه- الهدف من إرسال الرسل فقال –جل شأنه-: ، ثم برهن -سبحانه- بطريق النقل

والعقل على صحة الهدف الذي دعاهم إليه[50].

هكذا علمنا الإسلام أن نحدد الهدف، ثم خطط لاتخاذ الوسائل الموصلة.

أهداف الدعوة:

الأهداف هي الغايات، وكل داعية مطالب بتوجيه هذا السؤال إلى نفسه: لماذا أدعوا؟ وماذا أريد؟

والإجابة على هذا السؤال هي مبدأ كل عمل من الأعمال، وعلى ضوء الجواب يتحدد الجهد المطلوب والزمن الكافي والوسائل والأساليب والبرامج.

وهناك نوعان من الأهداف:

الأول: الهدف الأكبر، الذي هو الثمرة الرئيسة.

الثاني: الأهداف المرتبطة بأزمنة محددة أو أمكنة معينة أو أفراد معينيين أو أعمال معينة، وهذه الأهداف بعضها يسلم للآخر، وبعضها أكبر من بعض، وكلها يستوعبها الهدف الأكبر والغاية العظمى، ويحدث أحيانًا خلط بين الأهداف الصغرى والأهداف المتوسط والأهداف الكبرى، وعندها تقل إنتاجية العمل، ويستنفد الدعاة جهدهم بعيدًا عن الهدف الأكبر.

فبعض الدعاة يجيب على سؤال: لماذا أدعوا؟

فيقول: أدعو إلى تزكية النفوس لقول الله تعالى: [الشمس: 9-10]، وللوصول إلى هذا الهدف نجمع المريدين، ونطبق عليهم نظامًا يقوم على الأوامر السلوكية والأوراد والأذكار، وينبغي أن يصرف الاهتمام كله لهذا الهدف.

وداعية آخر يقول: الهدف إعانة الفقراء والمساكين والإحسان إليهم لقول الله تعالى: [المدثر: 42 -44]، ولتحقيق هذا

---

[50]() انظر: أسس الدعوة وآداب الدعاة: ص: (43).

الهدف لابد من دعوة أهل الخير إلى الإحسان، وبذل الصدقة وإيتاء الزكاة، وعليه فإنشاء الجمعيات الخيرية خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف.

وداعية ثالث يقول: الهدف تحرير المسائل العلمية المختلف فيها وجمع الأحاديث الصحيحة، ولتحقيق هذا الهدف لابد من عقد حلقات العلم وإنشاء المدارس والمؤسسات المتخصصة وطباعة الكتب.

وداعية رابع يقول: الهدف هو الوصول بالمسلمين إلى درجة عالية من الوعي السياسي الذي يطلعهم على مخططات الأعداء وما يستخدمونه من الوسائل لتنفيذ هذه المخططات، وتحقيقًا لهذا الهدف فلابد من القيام بالدراسات المتخصصة المعمقة والاطلاع على ما يقال وينشر عن الإسلام.

إلى جانب هذه الأهداف نجد بعض الدعاة يرضى بأهداف أصغر من ذلك، وبالرغم من أهمية بعض هذه الأهداف إلا أن السؤال يبقى قائمًا: هل هناك أهداف أكبر وأشمل؟

وإن نظرة سريعة إلى مستويات الأهداف يظهر لنا أن هناك أهدافًا متنوعة تجتمع في الهدف الأكبر وهو تحقيق رضا الله جل وعلا من خلال تعبدنا له في هذه الحياة، وعمارة الكون.

ويندرج تحت هذا الهدف الأعظم أهداف توصل إليه.

عبادة الله أعظم الأهداف:

ولا يشك أحد من الدعاة بأن أعظم الأهداف وأشرفها هو عبادة الله عز وجل، فمن أجلها خلق الله الخلق، ومن أجلها أرسل الرسل وأنزل الكتب، قال تعالى: [الذاريات: 56].

وقال تعالى: [الأنبياء: 25].

إن هاتين الآيتين الكريمتين حددتا معالم الدعوة الرئيسة، ووضحتا الغاية التي من أجلها أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين،

فالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك والكفر بالطواغيت والتنديد بالوثنية وإظهار عجز ما دون الله –عز وجل- وافتقاره إلى كل ما يفتقر إليه جميع المخلوقات هو الأساس الأول للدعوة إلى الله –تبارك وتعالى- وكل ماعدا ذلك من التشريع إنما يحصل نتيجة حتمية للإيمان بهذا الركن.

إن الإيمان بوحدانية الله، وإلهيته، وأسمائه وبصفاته التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسول الله ﷺ يستدعي بغير جدال الإيمان بالرسل والكتب والملائكة واليوم الآخر والقضاء والقدر، حيث إن الله –سبحانه وتعالى- الذي آمنا به قد دعانا إلى الإيمان بكل ذلك، فمن تحقيق الإيمان بالله الإيمان بكل ما طلب منا الإيمان به.

وختام الآية الأولى بالانضمام إلى الآية الثانية يحدد أبعاد هذه الدعوة ويوضح الغاية منها توضيحًا لا لبس فيه ولا غموض، تأمل قوله تعالى: (إِلَّا لِيَعْبُدُوْنَ) وأمعن النظر في قوله –جل شأنه-: (فاعبدون)، فعبادة الله عز وجل طاعته في كل ما أمرنا به واجتناب كل ما نهانا عنه، وبهذا تتحقق العبودية الخالصة، وتلك هي الغاية من إرسال الرسل وخلق الخلق، فالدعوة إذن واضحة المعالم، محددة الأبعاد.

قد حمل المسلمون الأوائل هذا الهدف، وكان واضحًا في أذهانهم، جليًا في أقوالهم وأفعالهم وسائر تصرفانهم فقد رسخه رسول الله ﷺ في نفوسهم، وعمقه في وجدانهم، فهو يذكرهم بحق الله على عباده قائلًا: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا»[51].

وهو ﷺ يربيهم على أن يكون هذا الهدف هو أول مطلوب في الدعوة، فيقول لمعاذ ط حين أرسله إلى اليمن: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل...»، ومن ثم وجدناهم ن ينطلقون بهذا الهدف داعين الناس إليه مرغبين الخلق فيه لا يثنيهم عائق ولا يضعفهم إغراء أو قوة، فهذا ربعي بن عامر ط، وقد سأله قائد الفرس: ما الذي جاء بكم؟ فيجيبه دون وجل أو خوف:

---

[51]() أخرجه البخاري: (8/74رقم5967)، كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجال، ومسلم: (1/58رقم30)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

«إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»[52].

وإذا كان هذا هدف الدعوة وتلك غايتها، فإن الداعية الناجح هو الذي يعمل على إنجاز أهداف الدعوة وتحقيق غاياتها، ومعلوم أن النجاح الأتم في الدعوة هو قبول الحق والعمل به، ورفض الباطل والإقلاع عنه، فهو قناعة نظرية واستجابة عملية، فإذا حصل إعراض وعدم قبول من المدعو للداعي فهذا ليس دليلًا على عدم نجاح الداعية، إذ أن الهداية من عند الله، يقول الله تعالى: [القصص: 56].

ورسول الله ﷺ يقول: «يأتي النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي وليس معه أحد»، وهذا قطعًا لا يدل على عدم نجاح هؤلاء الأنبياء، وإنما يدل على عدم وجود القابلية عند المدعوين.

فالنجاح إذن هو القيام بالواجب على الوجه الأكمل وكثيرًا ما تتحقق به النتائج وقد تتخلف لحكمة عند الله، وبهذا يتضح أنه لابد من أسس يلزم توافرها للداعية في شخصيته وممارسته ومفاهيمه التي تؤدي إلى حصول الهداية وتحقيق أثر الدعوة.

وخلاصة ما سبق يمكن أن يتحدد في النقاط الآتية:

1- من المهم جدًا للداعية أن يحدد هدفه الذي يسعى لتحقيقه، ويريد أن يصل إليه، وأن يكون واضحًا لدى الداعية.
2- ومن المهم أن يدرك أن الهدف الأعلى والأكبر لكل داعية ودعوة هو السعي لإخراج العباد من عبادة الهوى والدنيا إلى عبادة الله وحده، ومن ثم الوصول إلى رضي الله سبحانه وتعالى، وما أعده سبحانه لعباده الداعية إليه.
3- ومن المهم تحديد الأهداف القريبة التي يريد تحقيقها وتوصل إلى الهدف الأكبر مثل:
- نشر العلم الشرعي بين الناس.

---

[52] () البداية والنهاية: (7/39).

- تعميق العقيدة في نفوس الناس.
- نشر الخير والمعروف والفضائل.
- إنكار المنكرات الظاهرة.
- تربية الناس على الأخلاق.
- نشر المفاهيم الصحيحة المنبثقة من الكتاب والسنة.
- توعية الناس بالواجبات الشرعية.
- تربية الأسرة على الدين.
- تحفيظ القرآن الكريم للناشئة.
- نشر السنة النبوية، وغيرها من الأهداف التي يعمل الداعية لتحقيقها.

4- قد ينبثق من الهدف المحدد أهداف أخرى أقل، وعلى الداعية ألا يستكبر هدفًا، وألا يستصغر أخر فكلٌ يحدد هدفه وأهدافه في ضوء إمكاناته وقدراته وفي ضوء الحاجة إليه.

أظنك أخي الداعية تستطيع تحديد أهدافك البداية الجادة.

مواصفات الهدف أو ضوابط الهدف الصحيح:

لكي يحقق الداعية هدفه من دعوته، ويصل إلى ما يصبوا إليه فعليه أن يحدد هدفه وفق مواصفات واضحة يمكن إجمالها فيما يلي:

1- أن يكون الهدف شرعيًا بذاته فلا يقوده حماسة معينة، أو خطأ اجتماعي، أو بعد كثير من الناس عن الهدى، أو عمل جاد لأهل الباطل، أو غير ذلك من العوامل إلى أن يجعل هدفه غير شرعي.

ومثال ذلك كأن يجعل هدفه تتبع أهل الباطل فيقوده ذلك إلى القدح فيما لا يُقدحون فيه، أو نقد ذواتهم، فهذا انحراف عن الهدف الشرعي إلى هدف غير شرعي.

ومثال آخر: أن يكون هدفه الإصلاح العام لكن يحدد هدفه الموصل إلى هذا الهدف بتدمير منشأة أو قتل معصوم.

ومثال آخر: أن يكون هدفه تربية الشباب على الخير، ونقلهم من حياة اللهو والعبث والضياع، فيحدد للوصول إلى ذلك أهدافًا أخرى منها: التساهل في السلوكيات الشرعية مثل سماع المعازف والجلوس في مجالس الغيبة النميمة بحجة استمالة قلوبهم.

ومثال آخر: أن يكون هدف الداعية رعاية الأيتام والأرامل فيحدد هدفًا للوصول إلى ذلك هو جمع المال ولو كان من الحرام فيتساهل في

ذلك في ذلك حتى يصل إلى تكوين جمعية الأيتام.

فهذه نماذج لأهداف جزئية تحرف الداعية عن الأهداف الصحيحة وتوقعه في محظورات متنوعة في دعوته دنيا وأخرى[53].

2- أن يكون الهدف واقعيًا وممكن التطبيق، فلا يكون خياليًا أو فوق طاقة الداعية، أو يجنح نحو مثالية لا يتصور تطبيقها في الواقع، أو يقلد آخرين تختلف إمكاناتهم عن إمكاناته، ووسائلهم المتاحة لديه تختلف عن وسائلهم ونحو ذلك.

مثل: أن يكون هدفه نشر العلم الشرعي فيجعل من نفسه مفتيًا أو موجهًا أو معلمًا شرعيًا وهو لم يتأهل التأهل الشرعي بحجة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بلغوا عني ولو آية»، ومن ثم تراه يخبط في الأحكام الشرعية، ويتناقض فيها، ويتخذ المواقف من الأحداث مبنية على مجرد الحماسة، أو الهوى، أو نظرية العقلية المجردة.

ولا أبالغ إذا قلت إن كثيرًا من الفشل الواقع في بعض الدعوات ومن بعض الدعاة هو بسبب هذا الأمر.

3- أن يكون الهدف أو الغاية سليمة من حيث تطبيقها فلا تتعارض مع غيرها، ولا تضر غيره.

ومعنى ذلك أن الهدف قد يكون مباحًا، بل ومأمورًا به شرعًا لكنه يتعارض مع غيره عند تطبيقه، أو يضر بغيره، وذلك مثل أن يكون هدفه تربية النشئ على تحفيظ القرآن الكريم أو تعليمهم مبادئ الدين ، لكن هذا الداعية قد يحدد هذا الهدف مع معارضة هؤلاء النشئ لوالديهم، فيتعلق هذا النشئ بهذا المربي مع وقوعه في كبيرة من كبائر الذنوب وهو عقوق الوالدين.

ومثال آخر: أن يكون هدف الداعية أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر لكنه يتعدى بهما إلى الضرب أو الإيذاء وهو ليس من سلطته ذلك.

وبناء على ما سبق يجب أن يكون هدف الدعوة والداعية شرعيًا، وواقعيًا، وممكن التطبيق، ولا يتعارض مع غيره حتى يصل إلى تحقيقه بإذن الله تعالى.

ركائز الداعية في تحقيق أهداف الدعوة:

---

[53]() لا يخفى أن الأهداف الجزئية قد يسميها البعض وسائل، والمهم إذا عرف المقصود فلا مشاحة في السميات.

ويقصد بذلك المعالم التي يستعين بها الداعي لصياغة هدفه ووضوح رؤيته.

1- التخطيط الواعي:

إن الدعوة إلى الله بحاجة ماسة إلى تخطيط قويم يعنى به دعاة اليوم كما عني بها دعاة الأمس من دعوة النبي ﷺ وسلف هذه الأمة رضوان الله عليهم.

إن المتفحص في سيرة النبي ﷺ يرى أنه كان عليه الصلاة والسلام يُعنى بالتخطيط، فقد كان ﷺ يختار النماذج الصالحة لأن تكون رسلًا بالبشارة بالإسلام وهداية الناس إليه، فقد أرسل مصعب بن عمير ط إلى المدينة، وأرسل معاذ بن جبل ط إلى اليمن، وحبيب بن زيد ط إلى مسيلمة الكذاب، وقد كان يخبرهم بأحوال هذه المجتمعات وما هي عليه وما يصلح لها من دعوة.

وقد أقام نبي الإسلام ﷺ دار الرقم بن أبي الأرقم لتربية الصحابة وتعليمهم أمور الإسلام، وقد عاش بدعوته السرية ثلاث سنوات حتى كثر أتباع هذه الدعوة وأصبح لها قيمة في المجتمع المكي، وكذا كانت الهجرة النبوية تمضي بخطة مدروسة محكمة آتت ثمارها الحسنة والإيجابية.

إن التخطيط الواعي للدعوة هو الذي يوصل إلى النتائج المثمرة بأقصر الطرق بعد توفيق الله سبحانه وتعالى باستخدام أفضل الوسائل، أرقى الأساليب، والإفادة من وسائل الاتصال المعاصرة والتقنية الحديثة المتطورة لتصل إلى كل قلب.

إن ما ينبغي بيانه والتأكيد عليه أن البذرة مهما كانت صالحة فإنها تحتاج في نمائها إلى صلاح الأرض، وطيب التربة، وملاءمة الطقس، وكذلك كلمة الحق رغم أنها تحمل في داخلها تأثيرًا طبيعيًا، فإنها تحتاج إلى أن يراعي الداعية عند عرض الدعوة أوضاع المخاطب النفسية، فإن القلوب والنفوس تختلف إقبالًا وإدبارًا وتقدمًا وتخلفًا ورغبةً وإعراضًا بفعل الملابسات والأحوال التي تتناوبها، كاختلاف المواسم والفصول تمامًا في الملاءمة لشيء ما أو عدم الملاءمة له.

والخلاصة: أن على الداعية أن يخطط لعمله الدعوي، ولا يعني التخطيط الإيغال في الكتابة والورق، أو الجلوس على الطاولة وقتًا

طويلًا، وإنما يعني أن يدرك عمله، وماذا يريد أن يصل إليه، والخطوات التي يريد القيام بها في ضوء الوسائل المتاحة لديه.

ولنضرب لذلك مثالًا: معلم جعل هدفه تقويم سلوك تلاميذه مع مادته العلمية.

فالتخطيط أن يقيد الموضوعات التي يريد طرحها، والزمن الذي يستغرقه، ومدى قياس التأثر والتأثير، والأسلوب الذي يريد طرح أفكاره فيه هل هو القصة المؤثرة؟ أو أسلوب الاستفهام؟ أو الترغيب والترهيب؟ ونحو ذلك، وبهذا سيكون نتاج دعوته عظيمًا بإذن الله تعالى.

2- العلم والبصيرة:

إن من أعظم ضروريات الدعوة إلى الله تعالى أن يكون الداعية عالـمًا مدركًا لما يدعوا إليه، فقيها فيه بخاصة.

قال تعالى: 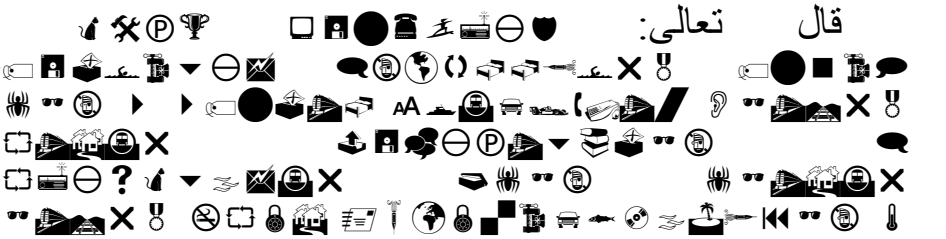

[يوسف: 108].

والبصيرة أخص من العلم العام، وفيها معنى زائد عليه، فهي تعني: البينة، والإدراك، والوضوح، والفهم، واليقين[54].

ومن البصيرة: أن يدرك الداعية عواقب الأمور، وأن لا يغفل عن النتائج في أقواله وتصرفاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فلابد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان من الثلاثة مستصحبًا في هذه الأحوال»، وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعًا، ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهًا

---

[54]() انظر: لسان العرب: (4/67).

فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه»[55].

فالفقه قبل الأمر، ليعرف المعروف وينكر المنكر، وهذا شرط من شروط الدعوة إلى الله تعالى، وواجب من واجبات الداعية أن يكون الداعية مدركًا لما يدعوا إليه، متحليًا بالفطنة، متسلحًا باليقين، ثابت الخطوة، واضح الرؤية في دعوته، ومدعويه، وفيمن حوله من أصدقاء وأعداء، وما يقع من أحداث.. فكل هذه المعاني تتضمنها «البصيرة» فهذا الشرط الذي ألزم الله به الدعاة في دعوتهم.

ولهذا فلا يجوز للمسلم أن يدعوا إلى الله إلا بعد أن يحمل قدرًا من العلم يكفيه في دعوته، وفهمًا ووضوحًا ينير له طريقه.

فالعلم يسدد له مسيرته، والفهم يوضح له رؤيته، فمن لم يحمل العلم في دعوته انحرف، ومن لم يكن على بصيرة تعثر.

وفضلًا عن هذا، فإن الداعية بغير بصيرة آثم عند الله لمخالفته أمر الله، ولأن فاقد البصيرة «العلم والفهم» لا يضل نفسه فحسب، بل يضل معها غيرها ممن يدعوهم، قال تعالى: [الحج : 3]، فلربما جعل الأمر نهيًا، والنهي أمرًا، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة، والبدعة سنة.

ولربما دعا إلى أمر غير مشروع، باسم الدين، كمن يعلم الناس الضلال والابتداع باسم الدين، كالخوارج والمعتزلة، وغلاة الصوفية والروافض ولهذا حذر الله من أمثال هؤلاء فقال سبحانه: [الأنعام: 119].

وقد عدَّ الله كل قول بغير علم افتراء، فكيف إذا كان في الدين والدعوة إليه، قال تعالى:

---

[55]() مجموع الفتاوى: (28/137)، والحديث لا يصح سندًا بهذا اللفظ، وإن كان صحيح المعنى وورد بألفاظ مقاربة، وكلها ضعيفة، فقد ذكره الغزالي في الإحياء: (2/333)، وقال العراقي لم أجده هكذا وللبيهقي في الشعب: (7603) من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ: (من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف) وفيه ضعيفان، وضعفه الألباني في الضعيفة: (590).

[الإسراء: 36].

وقال سبحانه بعد أن عدد بعض أقوال الكافرين وأفعالهم الكفرية:

[الأنعام: 140].

ولذلك أمر رسول الله ﷺ من سمع مقالته أن يعيها حتى يبلغها، فقال رسول الله ﷺ: «نضر الله امرءًا سمع منه شيئًا فبلغه كما سمع، فرب مبلغ أوعى من سامع»[56].

ولأهمية هذا عقد الإمام البخاري بابًا في صحيحه «باب العلم قبل القول والعمل»، فإن العلم يسدد القول، ويصوب العمل.

قال ابن حجر: «قال ابن المنير: أراد به: أن العلم شرط في صحة القول والعمل»، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما[57].

وقال ابن حيان الأندلسي: «لأن الدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يصلح إلا لمن علم المعروف والمنكر، وكيف يرتب الأمر في إقامته، وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما أمر بمنكر، ونهى عن معروف... وقد يغلظ في مواضع اللين، وبالعكس»[58].

وقال الحسن محذرًا من ترك العلم والابتعاد عنه: «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضر بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا»[59].

---

[56] () أخرجه البخاري: (2/216رقم1741)، كتاب العلم، باب الخطبة أيام منى.
[57] () فتح الباري: (1/160).
[58] () تفسير البحر المحيط: (3/20).
[59] () جامع بيان العلم وفضله: (1/136).

ومن هنا كان القول على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ من أخطر الذنوب والمحرمات لما فيه من الضلال والإضلال.

قال ابن القيم: «وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات وأعظمها إثما... وهو أصل الشرك وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم... واصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم...»[60].

وعليه فيجب على الدعاة إلى الله تعالى أن يتعرفوا على الحكم الشرعي في المسألة التي يرغبون الدعوة إليها، وأن يتعرفوا على أقوال العلماء حولها إن تعددت أقوالهم واختلفت مذاهبهم فيها، كما أن عليهم أن يعلموا رتبتها من الدين، وأن يتعرفوا على مقاصد الإسلام في تشريعاته وأحكامه.

والخلاصة: أن يبني هدفه على علم وبصيرة، وفهم وإدراك، ووضوح رؤية، لا أن يستخدم الهوى، والعقل المجرد، والتقليد للآخرين، فمفهوم البصيرة شامل لذلك كله.

3- الحكمة والموعظة الحسنة:

وهذا هو المعلم الثالث لركائز الدعوة ولرسم الهدف الصحيح، قال تعالى: [النحل: 125]، وقال جل شأنه: [البقرة : 83].

وروى الإمام البخاري عن علي بن أبي طالب ط: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[61].

إن الحكمة في الدعوة والموعظة الحسنة للمدعوين هما الركيزة الثالثة من ركائز الدعوة.

والحكمة هي وضع الشيء في موضعه، والحكمة ضالة المؤمن

---

[60] () مدارج السالكين: (1/404،403).

[61] () أخرجه البخاري: (1/44رقم...)، كتاب العلم، باب من خص بالعلم دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

ينشدها في كل مجال، ويبحث عنها بكل الوسائل، ذلك لأن الحكمة تقتضي أن يكون الداعية مدركًا لما حوله مقدرًا للظروف التي يدعو فيها، مراعيًا لحاجات الناس ومشاعرهم، حتى يتمكن من الوصول إلى قلوبهم، وتلك هي الخطوة الأولى في بلوغ الدعوة أهدافها.

والحكمة تجعل الداعي إلى الله يقدر الأمور قدرها، فلا يزهد في الدنيا والناس في حاجة إلى النشاط والجد والعمل، ولا يدعوا إلى التبتل والانقطاع والمسلمون في حاجة إلى العلم بالعقيدة والشريعة، والعلم بأحكام البيع والشراء، وكذا والناس في مسيس الحاجة لتعلم الوضوء والصلاة.

فيعالجها بحسب ما يقتضيه الحال، وبذلك ينفذ إلى قلوب الناس من أوسع الأبواب، وتنشرح له صدورهم، ويرون فيه المنقذ الحريص على سعادتهم وأمنهم واطمئنانهم.

والموعظة الحسنة هي الكلمة الطيبة تخرج من فم الداعية لتصل إلى عقول الناس فيجدون فيها الخير والسعادة، ويحسون من خلالها صدقه، وحرصه على جلب الخير لهم ودفع الضر عنهم، وقد مثل لها القرآن الكريم بقوله تعالى: [illegible] [إبراهيم : 24 -25].

الموعظة الحسنة هي التي تحمل للناس البشرى، وتأخذ بأيديهم إلى طريق الحق والصواب، هي مع ذلك لا تسيء إلى أحد أيًا كان، ولا تعنف أحدًا مهما كان، يلقيها الداعية يقصد بها وجه الله فتستل الضغائن من النفوس، وتنزع السخائم من القلوب، فيصفوا الناس بعضهم لبعض، ويلتئم الشمل، وتأتلف القلوب، ويصبح الجميع أخوة متحابين.

والموعظة الحسنة هي الكلمة الندية الرقيقة التي تلمس القلوب

فترق بها، وتخالط النفوس فتستهل لها وتفرح بها، وهي البلسم الشافي يداوي الجراح، ويخفف الآلام، ويشفي النفوس.

والقرآن الكريم قد عرض لنا نماذج من الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة في صورة مشرقة رائعة يأخذ منها الدعاة ما يفيدهم، وهي وان اختلفت في البيئات وتباينت العوامل إلا أنها على كل حال تعطي التصور العام الذي ينبغي أن يسلكه الدعاة، ويضعوا على أساسه خططهم ومنهاجهم.

من هذه النماذج خليل الله إبراهيم عليه السلام لم يعامل الذي حاجّه بالمثل بل حاجه بالحسنى، وجادله بالتي هي أحسن.

وطلب النمروذ من إبراهيم عليه السلام أن يقدم له دليلًا على وجود الله عز وجل فأجابه إبراهيم فقال النمروذ في تجبر وعناد: [البقرة: 258].

وأدرك إبراهيم عليه السلام أن العناد قد استولى على عقل خصمه، وأن اللجاج قد سيطر على نفسه، فسلم له، وأرخى العنان ليتمكن من إفحامه بما لا يستطيع رده ليبطل بذلك ما أدعاه أولا بعجزه في الثاني، قال إبراهيم عليه السلام: وهنا أخرس ذلك الخصم العنيد فلم يحر جوابًا، وسكت وكأنه لا يعرف الكلام: ، وهنا تلاحظ أن إبراهيم عليه السلام لم يغضب لعناد خصمه المتغطرس، ولم يلجأ إلى كلام فاحش أو لفظ بذيء، أو لم يتناول غير الموضوع الذي يريده، وتلك هي عين الحكمة والموعظة الحسنة.

إن خليل الله إبراهيم عليه السلام لو لجأ إلى غير ذلك لكان معذورًا فالخصم لدود، وخصومته شرسة، وعناده ولجاجه يستوجب السخرية والتهكم، ولكن إبراهيم عليه السلام ترفع عن ذلك، وعامله بما يجب أن يعامل به الدعاة المدعوين، فترفق به ولان ليستميل قلبه العاتي ويزلل نفسه الشرود.

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أمر بقوله تعالى: [النحل: 125] يتخذ من الحكمة والموعظة الحسنة أسلوبًا يغزو به القلوب ويلين به النفوس.

فهذا عتبة بن ربيعة عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء حتى إذا فرغ منها ما ناقشاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا جادله فيها، ولكن قال له: (أفرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم، قال: اسمع مني) فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [فصلت: 1-3]

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمدًا عليها ليسمع منه[62]، حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام عتبة وقد تغيرت معالم وجدانه وتقاسيم وجهه وقال فيه قومه لما رأوه من بعيد: «نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به».. نعم، لقد جاءهم بوجه رق للإسلام وقال لهم صراحة: «والله لقد سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلو بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كيفتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به»[63].

إن الكلمة الطيبة تبقى قاعدة وأسلوبًا في تبليغ الدعوة ترد بنبرتها الهادئة ونسمتها الحانية غاضبًا مفلوت الزمام.. فإن لم ترده هذه الكلمة الطيبة فقد بقي للدعوة أنها كانت ولا تزال تحب له الخير غير أنه هو الذي لا يريد لنفسه ذلك.

والخلاصة: أن من أهم ركائز الدعوة وصياغة الأهداف أن تبنى

---

[62]() السيرة لابن كثير: (1/504).

[63]() السيرة النبوية لابن كثير: (1/505)، والسيرة لابن هشام: (1/294).

على وسائل سليمة قاعدتها: الحكمة بمفهومها الشامل، الذي سبق إيضاحه، والموعظة في أعلا درجاتها وهي: «الحسنة».

النتائج المترتبة على العمل بهذه القاعدة:

لاشك أن من أهم عناصر نجاح الدعوة والداعية تحديد الهدف ووضوح الرؤية، ولذلك آثار إيجابية، منها:

1- تحقق الاقتداء بإمام الدعاة عليه الصلاة والسلام فلم تكن حركته الدعوية عشوائية أو بغير هدف واضح - كما سبق بيانه - فالداعية الذي يصوغ هدفه بوضوح يتحقق له الاقتداء.
2- معرفة ما يريد الداعية الوصول إليه فيكون ذلك دافعًا قويًا وحافزًا عظيمًا لمواصلة المسير.
3- يدرك الداعية بهذا الهدف طول الطريق وقصره، وماذا يريد من الوسائل، وما الأساليب التي يريد استخدامها؟
4- بصياغة الهدف والعمل له يستطيع الداعية القياس لمدى صحة مسيره، والتقويم الصحيح لسلامة خطواته.
5- عظم الأجر والمثوبة، فالأجر يعظم بعظم العمل، والعمل يعظم بعظم الهدف الذي يريد الداعية تحقيقه.

إن واحدة من تلك الآثار كافية لئن يسارع الداعية لصياغة هدفه والعمل له، فكيف وهو أساس العمل الدعوي؟

الآثار السلبية لعدم صياغة الأهداف أو عدم وضوحها كثيرة، منها:

1- التخبط في الأعمال الدعوية وعدم الثبات على هذه الدعوة فهذا الداعية لا يدرك إلى أين هو ذاهب.
2- طول الطريق وعدم سلامته.
3- كثرة العقبات المؤدية إلى التساقط أو ضعف المسير.
4- الملل والفتور إذ لا يدري هذا الداعية ماذا يريد أن يحقق؟
5- قد يفسد أكثر مما يصلح كما قال عمر بن عبد العزيز :: «من عمل في غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[64].

ونخلص إلى ما بدأنا به: أن على الداعية أن يحدد هدفه ويجتهد في ذلك ليكون سيره صحيحًا، وعمله سليمًا، وثمرته واضحة.

---

[64]() جامع بيان العلم لابن عبد البر: (1/27).

□□□□□

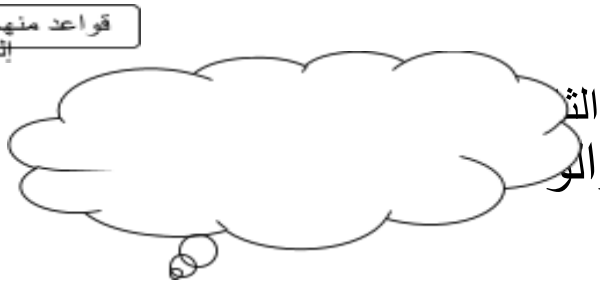

القاعدة الث

الغايات والو

مدخل: (الداعية الناجح هو الذي يتخذ الوسائل والأساليب الشرعية التي توصله إلى ما يحقق غاياته في الدعوة ويصل بها إلى أهدافه الدعوية).

الغاية في لغة العرب: النهاية والآخر... يقال: غايتك أن تفعل كذا: نهاية طاقتك، وغاية الأمر: الفائدة المقصودة منه[65].

وقال الجرجاني: «الغاية: ما لأجله وجود الشيء»[66].

وعليه فالمراد بالغاية: هدف الإنسان ومقصده الذي يريد الوصول إليه، وهي المنهي الذي يسير الإنسان لتحقيقه.

وأما الوسيلة: فهي كل ما أوصل إلى غاية، أو هدف، وتطلق على القربى.

قال ابن منظور: «وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل، والوسيلة الوصلة والقربى وجمعها الوسائل»[67].

وعليه فالمقصود بالوسائل: كل ما يتخذ من الأقوال، والأفعال، والأدوات، بقصد التوصل إلى الهدف والغاية المقصودة من قبل المتوسل.

غايات الدعاة:

إن غاية الدعاة إلى الله تعالى في هذا الوجود هي القيام بحمل الأمانة وتبليغها للناس، لتكون كلمة الله هي العليا، وذلك بأداء وظيفة الرسل الكرام، ألا وهي تبليغ الإسلام للناس، وتعليمهم إياه، وتطبيقه في واقع حياتهم، لقوله تعالى: [illegible]

---

[65] المعجم الوسيط، باب الغين، مادة: غيى.

[66] التعريفات: ص:(161).

[67] لسان العرب: (11،725).

[الجمعة: 2]، كما أن من غايات الداعية إلى الله تعالى: تحقيق العبودية لله رب العالمين، قال تعالى: [الذاريات: 56]، فتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى، والوصول إلى كل ما أمر الله تعالى به، وما يرضيه من عباده، من الأقوال والعمال الظاهرة والباطنة، والوصول إلى ما أمر الله به رسوله ﷺ والاقتداء به والعمل بسنته، والسير على نهجه، قال تعالى: [الأنفال 0: 1]، كل ذلك من غايات المسلم في حياته، حيث تتحقق بذلك العبودية المطلقة لله تعالى، وهو ما بينه رب العزة والجلال بقوله: [الأنعام : 162-163].

وهذه الغايات متفق عليها بين المسلمين إجمالًا، وإن اختلف بعض الدعاة من الناحية العملية في وضع أهداف مرحلية تحقق الغايات المنشودة، أو العمل والإسهام في تقديم العمل على تحقيق مجال منها قبل مجال آخر، ذلك لاختلاف القدرات والظروف والأحوال وتغيرها من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى آخر[68].

وقد سبق الكلام عن الغايات والأهداف في القاعدة السابقة. ولكن يذكر هنا لأهميته في الدخول إلى الحديث عن الوسائل، وللترابط بين القاعدتين.

---

[68] () ينظر: فقه الموازنات الدعوية: ص: (137، 138).

وسائل الدعاة في تحقيق غاياتهم:

وأما وسائل الدعاة إلى الله تعالى، فهي كل أداة حسية أو معنوية تنقلهم إلى مدعويهم، وتربطهم بهم، وتوصل رسالتهم إليهم، وتسهل دعوتهم لهم، وتساعدهم في تحقيق غايتهم.

والوسائل الدعوية في تشريعها تعتمد على أصول وضوابط، وهي في تغيرها متطورة يعتريها التغير والتبدل بحسب التطورات المختلفة والمتطلبات المتباينة في الزمان والمكان، ولكل زمان ومكان ما يناسبه من الأدوات والوسائل، ولكنها تعتمد على تلك الأصول والضوابط وذلك ليتحقق للداعية أن يصل إلى أهدافه بأسلم السبل وأسهل الطرق، استجابة لقوله تعالى: ﴿ [الأنفال: 60].

يقول الشيخ ابن سعدي يرحمه الله عن الوسائل الدعوية عندما اعترض معترض على استخدام مكبرات الصوت والهاتف في الدعوة إلى الله: «واعلموا أن الله أمر بتبليغ الدين، ويسر كل سبب يوضح الحق ويبينه، فكما أن استعمال الأسلحة القوية العصرية، والعناية بها داخل في قوله تعالى: ﴿ [الأنفال:60]، واستعمال الوقاية والتحصينات عن الأسلحة الفتاكة داخل في قوله تعالى بـ ﴿ [النساء: 102] الآية، والقدرة على المراكب البحرية والجوية والهوائية داخل في قوله تعالى: ﴿ [آل عمران: 97]. وجميع ذلك، وغيره في الأوامر يأخذ جميع وسائل القوة والجهاد، فكذلك إيصال الأصوات والمقالات النافعة إلى الأمكنة البعيدة من برقيات وتليفونات وغيرها، داخل في أمر الله ورسوله بتبليغ الحق إلى الخلق، فإن إيصالها الحق والكلام النافع بالوسائل المتنوعة من نعم الله، وترقية الصنائع والمخترعات لتحصيل المصالح الدينية والدنيوية من الجهاد في سبيل الله، وقد أخبر «أنه لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان»،

ومن ضرورة تقارب الزمان تقارب المكان، وذلك بالوسائل التي قربت المواصلات بين البلدان والسكان)[69].

مشروعية وسائل الدعوة:

اتخاذ وسائل الدعوة أمر مشروع بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول، وإيضاح ذلك بإيجاز على النحو التالي:

أ- فمن القرآن الكريم:

نجد أن القرآن الكريم تضمن العديد من الوسائل الدعوية ومن ذلك قوله تعالى: [النحل: 125].

وقوله سبحانه: [إبراهيم: 25]، وقوله عز من قائل: [طه: 44]، وقوله جل شأنه: [الأعراف: 176].

ب- ومن السنة النبوية:

المتأمل في سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته ودعوته للناس جميعًا يجد أنها قد حفلت بالعديد من الوسائل الدعوية، كالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، والقصص وضرب الأمثال، وتأليف القلوب، والهدية، والترغيب والترهيب، والجهاد في سبيل الله، وإرسال الكتب والرسائل إلى الناس، واستقبال الوفود، والقدوة الحسنة وغير ذلك من الوسائل المتعددة، سواء كانت مادية أم معنوية، فمن ذلك استخدامه صلى الله عليه وسلم الرسم على الرمل كوسيلة إيضاح، فعن ابن مسعود ط قال: «خطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا وخط خطوطًا أخرى عن يمينه...» الحديث[70].

---

[69] () المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ ابن سعدي، الخطب: (45، 6/53).

[70] () أخرجه أحمد: (1، 435)، والحاكم: (2، 318)، وصححه ووافقه الذهبي.

وعن ابن مسعود ط أيضًا قال: «خط النبي ﷺ خطا مربعًا، وخط خطًا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط»، وقال: «هذا الإنسان وهذا أجله محيط به – أو قد أحاط به- وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأ هذا نهشه هذا، وإن أخطأ هذا نهشه هذا»[71].

واستخدم رسول الله ﷺ الجدي الميت وسيلة توضيحية لخطابه الدعوي، فعن جابر أن رسول الله ﷺ مر بالسوق، داخلًا من بعض العالية والناس كنفته، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» فقالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا فيه لأنه آسك، فكيف وهو ميت؟، فقال: «فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»[72] ثم رماه.

واستخدم رسول الله ﷺ صوت ربيعة بن أمية بن خلف، وسيلة لإسماع الناس في الحج[73].

كما اتخذ رسول الله ﷺ المنبر وصعد على جذع النخلة عند الخطبة فعن عمر ط قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه»[74].

وبالجملة، فقد كان ﷺ المثل الكامل في استعمال جميع الوسائل الدعوية الممكنة والمناسبة للناس، مع وفرة خلقه وحلمه وعفوه وصفحه ورأفته بالمؤمنين، وتأسيهم به، قال تعالى:

71() أخرجه البخاري: برقم(6417)، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله.

72() أخرجه مسلم: (2957).

73() رواه الطبراني في الكبير: (11/172) رقم: (11399)، وقال الهيثمي في المجمع: (3/271)، رواه الطبراني في الكثير ورجاله ثقات.

74() أخرجه البخاري: (4/237رقم3583)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

[الأحزاب : 21].

ج -ومن الإجماع:

إن المتتبع لمسيرة منهج الدعوة الإسلامية في تاريخه الطويل يجد أن الأمة الإسلامية وفي مقدمتها سلف الأمة الصالح قد أجمعت على الأخذ بوسائل الدعوة المشروعة والنافعة للناس، في كل زمان ومكان، والتي فيها خير وإعزاز لأهل الحق والإيمان، وإيصال كلمة الإسلام إلى جميع الأمم والشعوب. وهذا الإجماع إجماع عملي في الأخذ بالوسائل المشروعة، وأشرت إليه هنا لتقوية عناصر الاستدلال كما هو منهج أهل العلم.

د -ومن المعقول:

نجد أن الدعوة الإسلامية لا تقوم بذاتها، بل لا بد لها من وسائل تقوم بإيصالها للناس، ولا يختلف اثنان على هذا الأمر، بل إن العقل الصحيح يستدعي استعمال الوسائل المفيدة لنشر الدعوة، قال تعالى:

[القصص: 51]، ولا شك أن العقل الصحيح لا يخالف النص الصريح.

حكم وسائل الدعوة:

بعد أن عرفنا ثبوت مشروعية وسائل الدعوة، يجدر بنا أن نتساءل: هل جميع وسائل الدعوة مشروعة؟ وصالحة لنشر الإسلام؟ وهل كل الوسائل النافعة وغير النافعة يمكن أن يأخذ بها الداعية بحجة إيصال الدعوة للناس؟

الحقيقة أن تلك التساؤلات هامة وفي مكانها.

ولإيضاح حكم وسائل الدعوة، فإن العلماء والباحثين ذكروا أن تصنيف الوسائل والأساليب لا يخرج عن ثلاث حالات[75].

الحالة الأولى:

النص على مشروعية الوسيلة والأسلوب في الكتاب والسنة، وحكم الوسيلة والأسلوب فيها توقيفي، ورد فيها الأمر الذي يدل على

---

[75] () انظر: وسائل الدعوة إلى الله تعالى بين التوقيف والاجتهاد: ص: (31)، قواعد الوسائل ص:(328)، مناهج الدعوة إلى الله تعالى: ص: (66)، المدخل إلى علوم الدعوة: ص: (286).

الوجوب أو الندب، أو الجواز، ومثاله قوله تعالى: [النحل: 125]، وقوله سبحانه: [البقرة : 83].

الحالة الثانية:

النص على منع الوسيلة والأسلوب في الكتاب والسنة، فالحكم فيها توقيفي بمنع استخدامها، ولا يجوز لأحد مخالفة ذلك، وبناء على ذلك فلا يجوز للداعية استخدام هذا النوع من الوسائل والأساليب الممنوعة شرعًا كالكذب والزور ودق الناقوس للصلاة والمال المحرم، وما فيه خدعة، والغيبة والنميمة، وآلات اللهو والطرب المحرمة وغير ذلك.

الحالة الثالثة:

عدم النص على الوسيلة والأسلوب بمشروعية أو منع في الكتاب والسنة، فالحكم فيها الاجتهاد بحسب ما تمليه المصالح المرسلة والقياس الصحيح، مع الأخذ بالاعتبار الضوابط الشرعية لذلك، فهذا النوع من الوسائل والأساليب يدخل في دائرة المباح، بناء على أن الأصل في الأشياء الإباحة.

أقسام وسائل الدعوة:

لوسائل الدعوة قسمان:

القسم الأول: وسائل دعوية مباشرة.

والمقصود بها: مجموع الوسائل الدعوية التي تتجه إلى المدعوين مباشرة دون واسطة، ومثال ذلك: الموعظة والخطابة، والمحاضرة، والدرس، والندوة، وغيرها.

القسم الثاني: وسائل دعوية غير مباشرة.

والمقصود بها: مجموع الوسائل الدعوية التي تتجه إلى المدعوين، بصورة غير مباشرة، وذلك عن طريق وسائط تحملها وتوصلها على المدعوين، ومثال ذلك: الوسائل الإعلامية والاتصالية

المتعددة كالإذاعة والتلفاز والهاتف والفاكس والإنترنت والشريط والكتابة وغيرها.

ضوابط وسائل الدعوة:

هناك عدة ضوابط وشرائط ينبغي توافرها في وسائل الدعوة حتى تصان عن الاضطراب، وتحفظ من الخلل والفساد.

وهذه الضوابط عديدة ومتنوعة، ويمكن إجمالها مختصرة دون توسع فيما يلي([76]):

1- أن تكون هذه الوسائل شرعية، متفقة مع أحكام الشريعة الإسلامية ومنسجمة معها، منضوية تحت كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وما أثر عن سلف الأمة الصالح، بمعنى أن يكون لها أصل شرعي تعتمد عليه.

2- عدم مخالفة هذه الوسائل للشرع، بمعنى أن تكون الوسيلة الدعوية غير محرمة ولا تدخل تحت نهي أو شبهة أو بدعة.

3- خروج الوسيلة من كونها شعارًا لغير المسلمين، وخاصة ما يتعلق بالشعارات في الأمور الدينية، مثل: الناقوس، والصليب، والبوق، والنار، وما يسمى بنجمة داود، أضف إلى ذلك القداح والأسهم، والزجر بالطير والضرب على الأرض وقراءة الكف، وما إلى ذلك من أمور تخالف العقيدة الإسلامية، وتتعلق بالديانات الأخرى بأي وجه من الأوجه.

4- أن يكون المقصود من الوسيلة مشروعًا، فإن كان الهدف ممنوعًا شرعًا فلا يتوسل إليه بأي وسيلة، لأن النهي عن المقصد نهي عن جميع وسائله المؤدية إليه، فكل وسيلة تؤدي إلى الحرام فهي محرمة، وكل وسيلة تؤدي إلى المكروه فهي مكروهة.

يقول ابن القيم :: «فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصود، لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصود قصد الوسائل، فإذا حرم الرب تعالى شيئًا، وله طرق ووسائل تفضى إليه، فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقًا لتحريمها، وتثبيتًا له، ومنعا أن يقرب

([76]) ينظر: وسائل الدعوة للدكتور عبد الرحيم المغذوي: ص: (20)، وسائل الدعوة إلى الله تعالى وأساليبها للدكتور حسين عبد المطلب: ص: (61)، قواعد الوسائل للدكتور مصطفى مخدوم ص:(347)، الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية للدكتور عبد الرحيم المغذوي ص:(674،676).

حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضًا للتحريم، وإغراء للنفوس به، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء»[77].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي: «والوسائل لها أحكام المقاصد، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم المسنون إلا به فهو مسنون، وطرق الحرام والمكروهات تابعة لها، ووسيلة المباح مباحة»[78].

5- أن لا يؤدي استعمال بعض الوسائل الدعوية إلى أحداث مفسدة أكبر من المصلحة المقصودة منها، فإن كانت تؤدي إلى مفسدة أو ضرر أو فتنة بين الناس فلا يشرع التوسل بها، لأن درء المفسدة الراجحة أولى من جلب المصلحة المرجوحة، وهذا ضابط عظيم فقد اضطرب فيه كثير من الدعاة، وسيأتي قاعدة مستقلة إن شاء الله تعالى.

معالم في استعمال الوسائل:

وهي عوامل مساعدة للإفادة من الوسائل المتجددة:

1- ينبغي على الدعاة مراعاة الأولويات في استعمال الوسيلة الدعوية، ومراتب الوسائل تابعة لمراتب مصالحها، فالوسيلة إلى أفضل المقاصد هي أفضل الوسائل، والوسيلة إلى أقل من ذلك فهي أقل درجة.

2- التدرج في استعمال الوسائل الدعوية، وهو التقدم شيئًا فشيئًا والصعود درجة فدرجة، ومعنى ذلك أن لا يبادر الداعية إلى استعمال كل ما عنده من وسائل دعوية دفعة واحدة لمجتمع معين، بل ينبغي عليه استعمال هذه الوسائل شيئًا فشيئًا والترقي مع حالة المدعو حتى يصل إلى أوفى الوسائل معه.

3- مناسبة الوسيلة الدعوية لحال المدعو أو لحال المجتمع، وقدرته على فهمها والإفادة منها، ومعرفة ما يريد الداعية إيصاله للمدعو عن طريقها.

4- مقدرة الداعية على استعمال هذه الوسائل الدعوية، والإلمام بفوائدها، وطرق نفعها للناس، مع حسن التعامل مع هذه الوسائل

---

[77] () إعلام الموقعين: (3/175).

[78] () القواعد والأصول الجامعة: ص: (10).

وتسخيرها لخير المدعوين ونفعهم، والتزام الصدق والحق في التعامل مع هذه الوسائل الدعوية.

الدعاة وتطور الوسائل:

إن من حكمة الداعية وفطنته، أن يواكب تطور الوسائل وبخاصة في هذا العصر، وأن لا يتخلف عن ركبها واستعمالها لمالها من أثر كبير في توسيع إطار الدعوة وتوضيحها، بل عليه أن يبدع في استخدامها ما استطاع، فإن عجلة القطار إذا سارت لا ترحم من صادمها، ولا تنتظر من تأخر عنها.

وهناك نوعان من الوسائل – التي جدت وانتشرت في هذا الوقت – ذات أهمية كبيرة في هذه الباب، ينتفع لها القاصي والداني والقريب والبعيد، وعلى الداعية أن يشارك فيهما وأن يسهم في النهوض بها ورفع مستواهما، وهذان النوعان هما:

1- الشبكة العالمية (Internet): فهذه الشبكة التي أوصلت جنبات العالم بعضها ببعض هي أجدى الوسائل التي ينبغي أن يستفيد منها الدعاة في نقل الدعوة إلى المدعوين، فالداعية والعالم يمكنه عبر هذه الشبكة أن ينقل دروسه وخطبه ومواعظه إلى أي في العالم – لديه القدرة على الدخول في هذه الشبكة- وينصح الدعاة عند استخدامهم لهذه الشبكة أن يتحلوا – في ما يبثونه عبرها- بخلق الداعية من اللين في الحديث، والتيسير في العرض، والبدء بنقاط الالتقاء من أصول العقيدة والتشريع، وبيان حقيقة الإسلام وإيصال الفهم الصحيح لمقاصده، كما عليهم أن يتجنبوا الإساءة إلى الآخرين مهما كان الأمر، وأن يحاولوا الوصول إلى أولى الأمر في المجتمعات غير الإسلامية لعرض الإسلام ومحاسنه عليهم لعلهم يستجيبون([79]).

2- وسائل الإعلام: وما قيل عن الشبكة العالمية يقال عن وسائل الإعلام المختلفة ولاسيما المرئية منها كالقنوات الفضائية التي تخترق كل الحواجز، فمعظم الجهود الموجودة على الساحة مشوبة بالحرص على تحقيق الأهداف التجارية أو خدمة أحزاب وفرق وجماعات، أو تسيء للإسلام من غير فقه في أصول الشريعة ولا

---

[79]() تأسيًا بأولئك الدعاة الكرام الذين وجهوا دعوتهم لرؤوس المغول الغزاة فأسلموا، فلم يلزم المسلمين جهاد ضدهم، لأنهم ما إن أسلموا حتى انقلبوا حماة للإسلام بعد أن كانوا أشد الناس عداوة له.

غاياتها الأساسية، والأمر يحتاج إلى خوض الدعاة الربانيين مجال هذه القنوات بغرض الإصلاح في فهم مقاصد الإسلام –عقيدة وشريعة- وبالتالي بث ما يطابق هذه الفهم الصحيح والدعوة من خلاله ليعم الخير العالم بأسره.

يقال هذا مع الأخذ بالاعتبار تلك الضوابط في التعامل مع هذه الوسائل.

الدعاة والموازنة بين الغاية والوسيلة:

إن الموازنة بين الغاية الوسيلة في حياة الدعاة وممارستهم على جانب كبير من الأهمية.

وهذه الموازنة لها محاور متعددة، ومنها:

1- الموازنة في التعامل مع كل من الغاية والوسيلة بما يناسبها، فلا يتعامل مع الوسائل على أنها غايات، ولا يتعامل مع الغايات على أنها وسائل، فكم تحولت في حياة بعض المسلمين اليوم الوسائل إلى غايات، حتى وصل ببعضهم الغلو في الوسائل إلى إضاعة الغاية التي استخدموا الوسيلة لها، مثل ما وقع فيع بعض الدعاة اليوم من الذين انتموا إلى أحزاب وجماعات إسلامية لتحقيق الدعوة إلى الله تعالى، فإذا بهم يصبحون دعاة إلى جماعاتهم وأحزابهم أكثر من دعوتهم إلى مبادئهم وأهدافهم، فوقعوا في الحزبية المنغلقة، وتجاوز بعض الدعاة الحدود في التعامل مع الوسائل التي اتخذوها لتوصلهم إلى هدفهم العام، فكانت هي هدفهم وإن أدت إلى ضياع الهدف الأصيل الذي استخدموها لأجله.

وهذا المحور غاية في الأهمية من الناحية العملية، إذ أن عدم الموازنة أوقع في مشكلات كثيرة خرجت بالدعوة عن مسارها الدعوي الصحيح إلى مآرب شخصية وحزبية ونحوها، والناظر إلى بعض الدعوات في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يجد ذلك واضحًا جليًا.

2- كما أن من محاور الموازنة بين الغاية والوسيلة تقدير الوسائل المناسبة للغايات المطلوبة، فكم تساهل الناس في وسائل كثيرة كان بالإمكان الاستفادة منها لتحصيل غاياتهم في الدعوة إلى الله تعالى، متجاهلين لمشروعيتها من جهة، أو مستشكلين في التباسها

بمحرم، فضيعوا فرصًا كثيرة لعدم استخدامهم لتلك الوسائل، ومثل أولئك مثل من ابتعد عن الدعوة في بعض الوسائل الإعلامية اليوم مدعيًا حرمة التعامل معها بإطلاق لما تحويه من محرم، فمثل هذا يعذر باجتهاده، ولكنه في وجهة النظر الأخرى ضيع فرصًا عظيمة ثبت نفعها في الواقع، وبخاصة إذا ألزم غيره بهذا الرأي[80].

3- ومن محاور الموازنة أيضًا بين الغاية والوسيلة اختيار الوسائل المناسبة والاهتمام بها عند وضع الخطط والمناهج الدعوية، فلا يكتفي الداعية بحسن الهدف ونبله، وكم اقتصر بعض الدعاة على الهدف في دراستهم وأعمالهم، غير مقدرين لما تحتاجه أعمالهم من وسائل تحقق لهم غاياتهم، فإذا بهم يخوضون فيما لا يحسنون، ويقعون فيما لا يقدرون، لأن وسائلهم المتاحة عجزت عن مساعدتهم في تحقيق أهدافهم، كمن تعجل في أعمال جهادية لم يحقق وسائلها، ولم ينظر إلى متطلباتها، فكان ضرره أكثر من نفعه وتدميره أكبر من بناءه، ومثال ذلك: أن يحدد هدفًا عظيمًا مثل تشييد مدارس لتحفيظ القرآن الكريم أو تربية الناس على المنهج العلمي، ويوغل في تشييد هذا الهدف وصناعته لكن لم يقدر الوسائل المناسبة لتحقيقه، فيذهب الجهد هباءًا منثورًا.

ومن هنا على الداعية أن يوازن لكي يبدأ عملًا جادًا ومثمرًا.

4- ومن محاور الموازنة بين الغايات والوسائل، التقدير والمساواة بين الغاية والوسيلة، فلكل غاية وسائلها، وقد بالغ بعض الدعاة في استخدام الوسائل وتطويرها، واتخاذ القدر الكبير منها، واستغلاله في الحركة الدعوية، لتحقيق أهداف ميسرة، فإذا بالغاية تضيع بين كثرة الوسائل، ويفقد المدعوون التركيز على الغاية لانشغالهم بمتعة التعرف على الوسيلة، وهذا لا يعني التقليل من أهمية الوسائل، بل المراد من ذلك دقة الموازنة في اختيار الوسيلة

---

[80]() أذكر أن حوارًا دار مع سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله رحمة واسعة، حضره عدد من العلماء حول أهمية مشاركة العلماء وطلاب العلم القادرين إعلاميًا في الفضائيات، وكان هناك رأيان بالمشاركة وعدمها، وكان توجيه سماحته : بالمشاركة للقادرين، وعلى المانعين عدم التثبيط، وهم معذورون – أي المانعون – لكونهم لم يقتنعوا شرعًا.

المناسبة للغاية المناسبة.

ومن خلال ما سبق تتبين أهمية الموازنة بين الغاية والوسيلة في حياة الدعاة إلى الله تعالى([81]).

الآثار الإيجابية:

إن من أهم الآثار الإيجابية في استخدام الوسائل المناسبة ما يلي:

1 – تبليغ الدعوة بكل ما تيسر من الوسائل.

2 – براءة الذمة في الاستفادة مما منح الله جل وعلا من الإمكانات.

3 – اختصار الوقت والجهد والمال في تبليغ الدعوة.

4 – عدم تأخر الدعوة وقتًا، مما تضيع معه عدد من الفرص الدعوية.

5 – الفاعلية في التجاوب مع القضايا المستجدة لتبليغ الدعوة.

وعلى عكس هذه الإيجابيات تكون السلبيات في التأخر عن الوسائل والاستفادة من المناسبة فيحصل التأخر والإحجام عن تبليغ الدعوة، كما يحصل من انتشار الشر والرذيلة ما يستدعي جهودًا أكبر في معالجتها ومكافحة انتشارها.

والخلاصة: أن على الداعية بعد صياغة أهدافه، أن يصوغ وسائله التي يريد العمل بها للوصول إلى الأهداف المرسومة كلما كانت الوسيلة أسهل تناولًا، وأقل تكلفة، وأوسع انتشارًا، وأوضح بيانًا، كانت الحاجة إليها أمس، والداعي إليها أوجب.

وكلما كانت الوسيلة أصعب استعمالًا، وأكثر تكلفة، وأضيق انتشارًا، وأعقد بيانًا، كان تركها أولى من استخدامها.

والمسألة تخضع لقواعد تزاحم المصالح والمفاسد، مما هو مفصل في مظانه([82]).

□□□□□

---

[81]() ينظر: فقه الموزانات الدعوية: ص: (138،139).

[82]() ينظر: منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر: ص: (368).

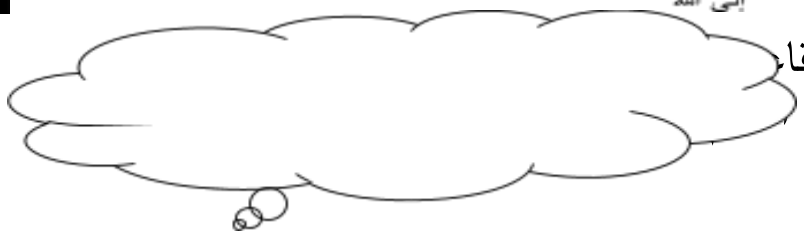

القا...
الموازنة بين ...

مدخل: (الداعية الناجح من تقوم دعوته على العلم بما يدعو والعمل بالعلم، والعبادة بما يأمر به وينهى عنه. وما يقال عن الداعية يقال عن الدعوة، فالعلم في الإسلام شرط في صحة العمل، والعمل ثمرة العلم، فكل علم لا يثمر عملاً فهو هوان وخسران، وكل عمل يقوم على غير علم فهو فساد ودمار).

ولتوضيح ذلك نعرض لهذه القاعدة في النقاط التالية:

العلم صفة أساسية في الدعوة والداعية:

العلم صفة أساسية في الداعية إلى الله تعالى، لأنه يدعو إلى دين الله، والدين عقيدة وشريعة وأخلاق، ولا يمكن القيام بها إلا عن علم وبصيرة، وقد قال سبحانه مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: [يوسف: 108]، أي على علم ويقين[83].

والبصيرة في ثلاثة أمور:

- فيما يدعو إليه، بأن يكون عالمًا بالحكم الشرعي الذي يدعو إليه؛ لأنه قد يدعو إلى شيء يظنه واجبًا وهو في شرع الله غير واجب، فيلزم عباد الله بما لم يلزمهم الله به، وقد يدعو إلى ترك شيء يظنه محرمًا وهو في دين الله غير محرم، فيحرم على عباد الله ما أحله الله لهم.
- في حال المدعو، ولهذا لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب»[84] ليعرف حالهم ويستعد لهم.

---

[83] () تيسير الكريم الرحمن: ص: (361).

[84] () أخرجه البخاري: (2/158رقم1496)، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء، ومسلم: (1/50رقم19)، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام.

فلابد أن تعلم حال هذا المدعو ما مستواه العلمي؟ وما مستواه الجدلي؟ حتى تتأهب له فتناقشه وتجادله، بما يستحقه وهكذا.

- في كيفية الدعوة، قال الله تعالى: [illegible] [النحل: 125](85).

فإذا لم يكن الإنسان ذا علم فإن الواجب به أن يتعلم أولًا ثم يدعوا ثانيًا، ذلك أن العامل على غير علم كالسالك على غير طريق كما يقول الحسن البصري(86)، وفي الأثر: «من سلك طريقًا بغير دليل ضل، ومن تمسك بغير أصل زلَّ».

واجب الدعاة الحرص على طلب العلم:

إذا كان العلم صفة أساسية في الداعية، فعلى الدعاة إذا أرادوا الفلاح والتوفيق والنجاح لدعوتهم، أن يكونوا على فقه في دين الله، وأن يستكثروا في فترات أعمارهم كلها من العلم النافع، عملًا بقوله تعالى: [illegible] [طه: 114]، وإنما رغب الإسلام في العلم، وحث على طلب الزيادة منه لأمور:

أولها: العلم دليل الإيمان:

إن القرآن الكريم يعتبر العلم الحق داعية إلى الإيمان ودليلًا إليه، قال تعالى: [illegible] [الحج : 54]، فهذه المعاني الثلاثة مترتب بعضها على بعض: فالعلم يتبعه الإيمان تبعية ترتيب بلا تعقيب، ليعلموا فيؤمنوا.

والإيمان تتبعه حركة القلوب من الإخبات والخشوع لله تعالى،

---

(85) زاد الداعية: ص:(928).

(86) جامع بيان العلم وفضله: (1/164).

وهكذا يثمر العلم الإيمان، ويثمر الإخبات والتواضع لله رب العالمين.

وفي آية أخرى يذكر العلم والإيمان متعاطفين جنبًا إلى جنب كما قال تعالى: [الروم: 56]، فالعلم والإيمان في الآية الكريمة مقترنان متعاطفان يسيران جنبًا إلى جنب، ومن هنا نجد أن الله تعالى في القرآن الكريم ينوه بالذين بأنهم هم الذين يعرفون قيمة القرآن الكريم ويؤمنون به، ويتأثرون بما فيه: [الإسراء: 107 – 109].

لذلك كانت أولى الآيات التي نزلت على رسول الله ﷺ تشيد بالعلم والتعلم والقراءة: [العلق: 1-5] والقراءة عنوان العلم ومفتاحه ومصباحه، هكذا كان أول أمر من الله في الإسلام: (أقرأ) وقد كرره مرتين في هذه الآيات تأكيدًا لأهميته، ولكنها ليست مرد قراءة، ولكن قراءة باسم الرب الخالق، ومعنى أنها باسمه: أنها بإذنه وأمره ومباركته، فهي قراءة إيمانية،

وهي تشير إلى أن العلم في الإسلام لا بد أن يكون في حضانة الإيمان بالله، وبهذا يكون العلم أداة خير، لا معول هدم، يكون للتعمير لا للتدمير.

ثانيها: العلم إمام العمل:

العلم في الإسلام يسبق العمل، ويدل عليه ويرشد إليه، وهذا ما ذكره الإمام البخاري : في كتاب «العلم» من صحيحه، واستدل عليه بالقرآن من مثل قوله تعالى: [محمد: 19]، فبدأت الآية بالعلم بالتوحيد، وثنت بالاستغفار وهو عمل، وفي حديث معاذ المشهور في فضل العلم الذي ذكره ابن عبد البر وغيره: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة»، وفيه قال: «وهو إمام والعمل تابعه»[87].

وعنى هذا، فإن العلم إمام العمل وقائد له، والعمل تابع له، فكل عمل لا يكون مبنيًا على علم، فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم، ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك.

قال تعالى: [الملك : 2].

قال الفضيل بن عياض في تفسير «أحسن العمل»: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن

---

[87]() جامع بيان العلم وفضله.

خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[88]، وقد قال تعالى: [الكهف: 110]، فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ، مرادًا به وجه الله، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكن إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة، وقد قال تعالى: [المائدة : 27].

ولهذا قال المحققون: إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل[89]، ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته، وإن قدر سلامته اتفاقًا نادرًا فهو غير محمود، بل مذموم عند العقلاء.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول».

ثالثهما: العلم هو العاصم من الزلل والحافظ من الفتن:

العلم يعصم صاحبه من الزلل، ويصونه من الفتن، ويحميه من الفشل، وأوضح دليل على ذلك قوم قارون، قال تعالى: 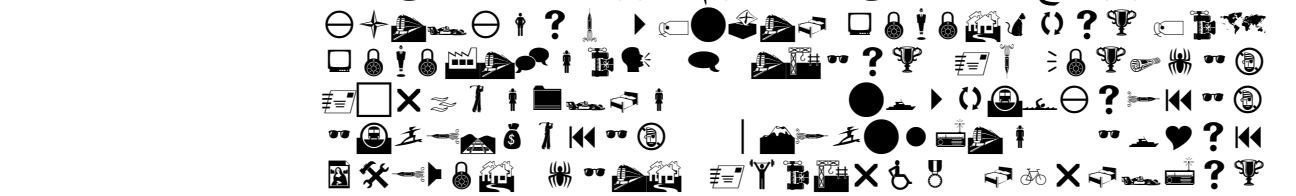

---

[88] () علم الحديث لابن تيمية: ص: (172، 173)، ط: دار الباز.

[89] () جامع بيان العلم وفضله: (1/164).

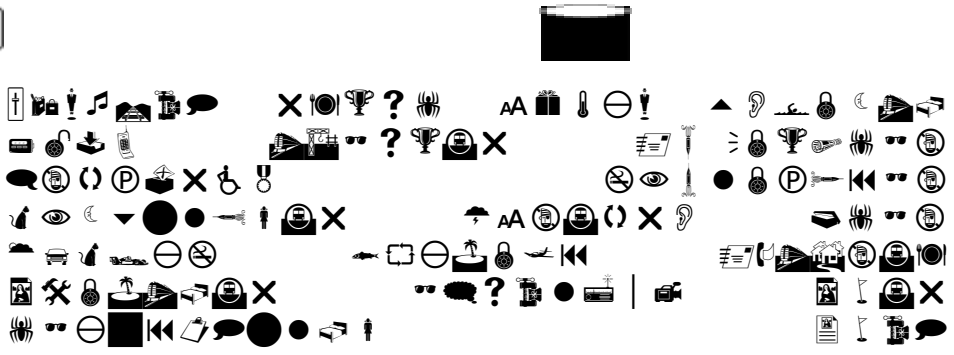

[القصص : 79 – 80].

فالآيتان تصوران حال فريقين: فريق همته دنية ينظر إلى عاجل الأمور وظواهر الأشياء، فالحظ العظيم عندهم نعيم الدنيا وزينتها، ولا نظر عندهم إلى ما عند الله من خير وفضل، وإن همةً جعلت هذا غاية مرادها، ومنتهى مطلبها لمن أدنى الهمم وأسفلها، وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية، والمطالب الغالية.

أما الفريق الآخر فقد عرفوا - بفضل العلم - حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها، ومن ثم أدركوا أن ثواب الله وما عنده من فضل وخير مما تمنوا، فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يقبل عليه، فما يلقى ذلك ويوفق له: (إلا الصابرون) الذين صبروا على جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية[90].

ويوضح الرسول الكريم ﷺ أثر العلم في صيانة المجتمع من التفكك فيقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[91].

وموطن الشاهد من الحديث أن غياب العلم عن ساحة الناس بغياب حملته إيذان بحلول الفوضى والاضطراب، حيث يكون البديل –وقتئذ- جهّال يفتون بغير علم، فيضلون بأنفسهم، ويضلون غيرهم.

لذا يقول الحسن البصري ط: «العامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا

---

[90] () انظر: تفسير السعدي: ص:(574).

[91] () أخرجه البخاري: (1/36رقم100)، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ومسلم: (4/2058رقم2673)، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون.

لا تضروا بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا»[92].

ولعل ألصق الأمثلة بهذه المسألة ما ذكره رسول الله ﷺ في شأن الخوارج، حيث يقول ﷺ: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم على صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن، يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»[93].

وفي رواية أخرى في شأن هؤلاء القوم أيضًا: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»[94].

وما طوائف البغي - في عصرنا - الذين يسفكون الدماء ويقتلون الأبرياء ويخرجون على ولاة الأمور ببعيدين عن هؤلاء.

من أجل هذا – وغيره - كانت توجيهات الإسلام إلى ضرورة طلب العلم، والحرص على الاستكثار منه، يقول الرسول الكريم ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[95]، وعن سفيان ابن عيينة قال لأصحابه: «من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قالوا: قل يا أبا محمد قال: ليس أحدًا أحوج إلى طلب العلم من العالم، لأنه ليس الجهل بأحد أقبح من العالم»[96].

والآيات والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة، وقد أفرد الإمام ابن القيم في مقدمة كتابه: «مفتاح دار السعادة» عددًا من الصفحات للحديث عن فضل العلم وأهله وعموم الحاجة إليه، وذلك من وجوه وصلت عنده إلى أكثر من مائة وخمسين وجهًا. رحمه الله رحمة

---

[92] () جامع بيان العلم وفضله: (1/ 164).

[93] () أخرجه البخاري: (9/198رقم7562)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ومسلم: (2/740رقم1063)، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

[94] () أخرجه البخاري: (4/167رقم3344)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل: (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية)، ومسلم: (2/741رقم1064)، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

[95] () أخرجه البخاري: (1/27رقم71)، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، ومسلم: (2/718رقم1037)، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة.

[96] () تقريب كتاب الفقيه والمتفقه: ص: (304).

واسعة.

العمل بمقتضى العلم مطلب أساس في الداعية:

إذا كانت تعاليم الإسلام تؤكد على أهمية العلم وضرورة العناية بتحصيله –كما سبق بيانه- فإنها تنظر إلى العلم على أنه وسيلة لا غاية، فهو وسيلة إلى تصحيح المعتقد، وتزكية النفس، وصحة الأعمال، وتهذيب الأخلاق، وتقويم السلوك.

قال بعض الحكماء: «العلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يطلب علم، ولولا العلم لم يطلب عمل، ولأن أدع الحق جهلًا به أحب إليَّ من أدعه زهدًا فيه»[97].

يشير بهذه الجملة الأخيرة إلى أن الجاهل قد يعذر بجهله، أما العالم بالحق التارك له فإنه لا يعذر، بل تتضاعف عقوبته، إذ ليس من علم كمن جهل.

ومن ثم كان على العالم والداعية أن يعمل بموجب ما يعلم، فعلمه بالعبادات يقتضي أن يؤديها على وجهها، مستوفية شروطها وأركانها، خالصة لوجه الله تعالى.

والعلم بالمعاملات يقتضي أن يقوم بها في حدود الحلال، بعيدة عن الحرام مستكملة الشروط والأركان، والعلم بالأخلاق يقتضي أن يتحلى بفضائلها ويتخلى عن رذائلها.

والعلم بطريق الآخرة يقتضي أن يعد لها عدتها، ويسعى لها سعيها، ويحذر من قواطع الطريق التي تعمل على أن تثبط إرادته، وتعوق حركته.

وبهذا يكون العلم حجة له، لا حجة عليه، ويستطيع أن يجد للسؤال جوابًا إذا سئل يوم القيامة: «عن علمه: ماذا عمل فيه؟».

عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره: فيم أفناه؟ وعن علمه: فيم عمل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه: فيم أبلاه؟»[98]، ولا يكون كذلك العالم الذي أتاه الله آياته فانسلخ منها،

---

[97] () اقتضاء العلم العمل: ص:(15).

[98] () أخرجه الترمذي: (4/190رقم2417)، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة.

وأخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فضرب الله مثلًا بالكلب في أسوأ صورة له: [الأعراف: 175 – 176].

وإنما ينتصر أهل الدين، ويعز المسلمون، وترتقي الدنيا، بالعلماء العاملين الذين يؤيد عملهم علمهم، وتصدق أفعالهم أقوالهم، فهم يؤثرون في الناس بسلوكهم وحالهم أكثر مما يؤثرون بكلامهم، ولهذا قيل: حال رجل في ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل!.

وإن من شر ما تبتلى به الحياة، ويبتلى به الناس: العالم الذي يناقض عمله علمه، ويكذب فعله قوله، فهو فتنة لعباد الله، وهو الذي حذر القرآن منه أهل الإيمان: [الصف : 2-3].

إن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بمن علمت بأنه يقول ولا يعمل، أو يعلم ثم لا يعمل، ولهذا قال شعيب عليه السلام: 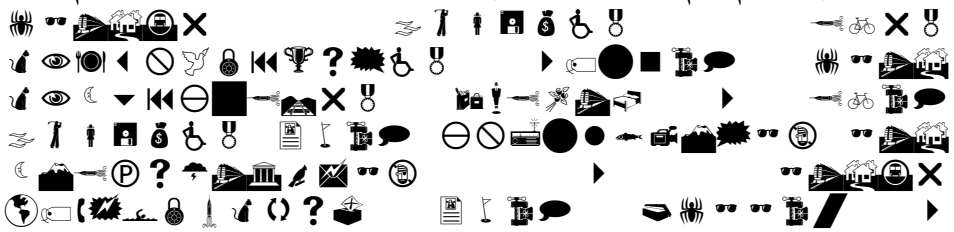

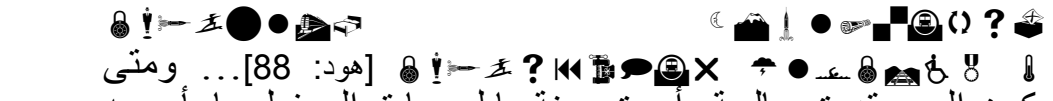

[هود: 88]... ومتى يكون المرء قدوة صالحة وأسوة حسنة ما لم يسابق إلى فعل ما يأمر به من خير، وترك ما ينهى عنه من سوء؟!.

وقد جاء في الصحيح عن أسامة بن زيد ك أن رسول الله ﷺ قال: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقي في النار فتندلق أقطابه في النار، فيدور بها كا يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[99].

إن من واجبات الداعية أن يتابع نفسه بما يصلحها ويزكيها، وألا يتساهل أو يلين في مراقبتها ومحاسبتها، لأن النفس أمّارة بالسوء، ومداخل الشيطان إليها أكثر من أن تحصي.

إن استشعار الداعية لمسؤولية إصلاحه لنفسه أمر عظيم، فكيف سيأمر الناس بأمر وهو بعيد عن تطبيقه؟! وكيف سينهاهم عن فعل أمر وهو واقع فيه؟! فإنه لا محالة سيقع في التناقض.

قال تعالى:

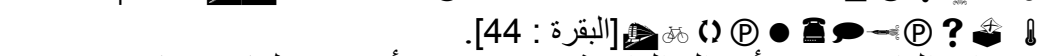

[البقرة : 44].

إن الناس ترقب أحوال الداعية، ويرتقبون بأعينهم سلوكه، ويكون انتفاعهم من علمه بقدر ما ينتفع به لنفسه.

قال محمود بن الحسن بن الوراق:

إذا أنت لم ينفعك علمك لم تجد	**لعلمك مخلوقا من الناس يقبله**
وإن زانك العلم الذي قد وجدت	**له من يجتبيه**

---

[99]() أخرجه البخاري: (4/147رقم3276)، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، ومسلم: (4/2990رقم2979)، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوق من يأمر بالمعروف ولا يأتيه.

حملته	ويحمله[100]

ولا يقتصر ضرر المرء -حينئذ- على قلة الانتفاع بعلمه، بل إن الناس ترى في سلوكه مشجعًا على اقتراف الآثام، وارتكب الخطايا، باعتبار أن القدوة لهم قد حاد عن الطريق المستقيم، فهم -لهذا- أعجز عن الالتزام به.

يقول الإمام ابن القيم: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعون إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له، فهو في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع طرق»[101].

العبادة: العبادة كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية :: «هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة...، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة»[102].

بهذا المفهوم الواسع للعبادة، فإن هناك رابطًا واضح بين العبادة والعمل، ولا يمكن الفصل بينهما، وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلاقة في كتابه المبين في مواطن كثيرة، بل لا تخلو سورة إلا وفيها إشارات ومعان تربط بين العبادة والعمل:

- مطلب العلم عمل وعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1].
- وقيام الليل عمل وعبادة، كما في قوله تعالى:

100() جامع بيان العلم وفضله: (1/197).
101() هداية المرشدين: ص: (92).
102() العبودية: ص:(38).

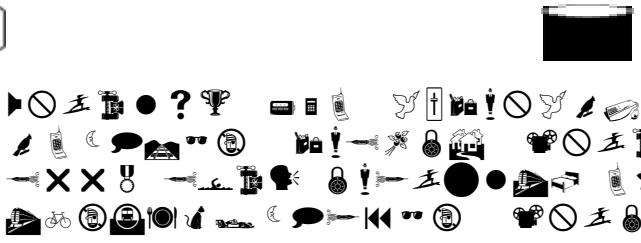

[المزمل : 1-4].

- والصلاة عبادة وعمل، لقوله تعالى:

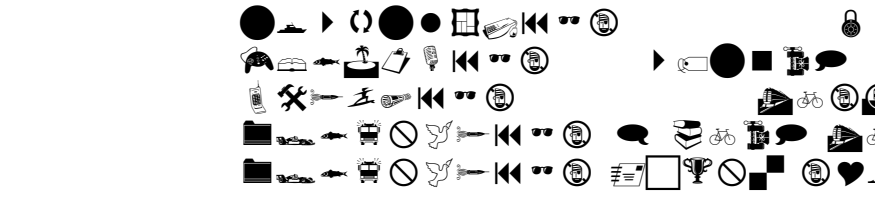

[الإسراء: 78].

- وقراءة القرآن عبادة وعمل:

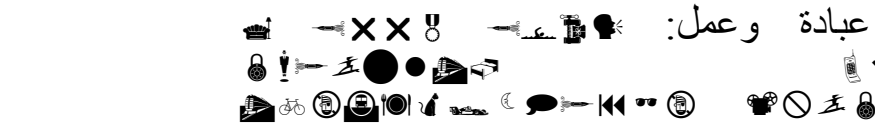

[المزمل: 4].

وهكذا سائر الفروض والنوافل وأعمال الخير والإحسان، كلها أعمال تعبدية لله تعالى.

وقد أمر الله تعالى عباده بهذا بهذه العبادة بهذا المفهوم الواسع والكبير، فقال:

[الحجر : 99].

كما حدد جل وعلا رسالة الإنسان على الأرض في العبودية له جل وعلا، قال تعالى:

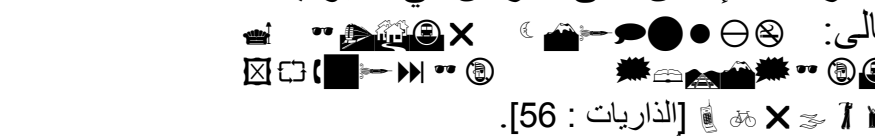

[الذاريات : 56].

ومن هنا فإنه من الخير للداعية أن تكون العبادة ديدنه في الحياة، وأن يجعل كل عمل يقوم به خالصًا لله تعالى وتعبدًا له وتقربًا إليه، وأن ينتظم بهذه العبادة بخشوع ورغب ورهب، كالحرص على الفروض في أوقاتها، وكذلك المحافظة على النوافل والتطوع، مثل السنن وقيام الليل وقراءة القرآن وجميع أنواع الذكر المختلفة.

النتائج المترتبة على مخالفة هذه القاعد:

يمكن تلخيص الآثار السلبية المترتبة على عدم العلم، أو عدم

العمل بالعلم، أو عدم الموازنة بينهما وبين أقوال الداعية وسلوكه وتصرفاته:

1 – الوقوع في أخطاء جوهرية وأساسية، بل وربما تكون منهجية تحرف مسار الدعوة إلى غير مقاصدها الشرعية.
2 – التناقض في الدعوة وعدم وضوح منهجيتها؛ لأنها لم تبن على علم شرعي.
3 – عدم الثقة في الداعية أو الدعوة إذا كانت مبنية على جهل أو تناقض.
4 – فشل أو ضعف الثمار المرجوة من الدعوة.
5 – افتتان الناس بهذه الدعوة أو في الداعية نفسه.
6 – تحمل الداعية أو الدعوة أخطاء الناس فيكون ممن سنّ في الإسلام سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيء.
7 – تساقط كثيرين ممن سلك الدعوة لفقدهم ثقتهم فيها.
8 – تشويه صورة هذا الدين الذي يمثله ذاك الجاهل أو تلك الدعوة التي بنيت على غير أسس علمية.

وفي سبيل التأكيد على خطورة هذا التصرف المتناقض يقول أبو العتاهية:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا	**إذا عبت منهم أمورًا أنت تأتيها**
تعيب دنيا وناسا راغبين لها	**وأنت أشد منهم رغبة فيها**
كالملبس الثوب من عرى وعورته	**للناس بادية ما إن يواريها**
وأعظم الإثم بعد الشرك فعلمه	**في كل نفس عماها عن مساويها**
عرفناها بعيوب الناس تبصرها	**منهم ولا تبصر العيب الذي فيها**

وبناء على ما سبق نخلص إلى: أن من أهم أسس قبول الدعوة ونجاحها، قيامها وتأسيسها على العلم بكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، وهو – أي العلم – العاصم بإذن الله تعالى من انحرافها غلوًا

أو تقصيرًا، ومن ثمّ العمل بهذا العلم، وصيانة سلوك هذا الداعية بالعبادة لله سبحانه وتعالى فيكون علمه وعمله عبودية لله جل وعلا.

وعليه الداعية الجاهل الذي يدعو بغير علم يظلم نفسه، ويتحمل أخطاء غيره.

والداعية المقصر في العمل يكون قدوة سيئة، وصورة سلبية للدعوة نفسها.

ومن هنا يجب أن تقوم الدعوة، وأن تؤسس، وأن يرعى بناؤها على العلم الشرعي، وأن يكون الدعاة عاملين بعلمهم، قدوات حسنة لما يدعون إليه. كما كان عليه الصلاة والسلام الذي كان خلقه القرآن كما ذكرت ذلك أم المؤمنين عائشة ك. وما فشلت كثير من الدعوات اليوم واضمحلت إلا بأن بنيت على غير علم وتصدر قيادتها غير العلماء، فليعي الدعاة وطلاب العلم عظم الأمر وكبر خطره وأهميته.

□□□□□

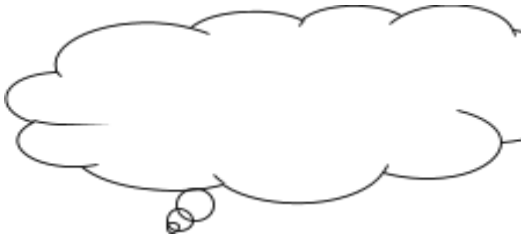

القاعدة الخ
فقه المصالح

مدخل: (الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها ومن ثم يجب على الدعاة مراعاة هذه القاعدة ـ قاعدة المصالح والمفاسد ـ في الدعوة بما يحقق أعلا المصالح ويدرأ أعظم المفاسد).

قال ابن القيم :: «والشريعة مبناها وأساسها يقوم على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل»[103].

وهذه قاعدة من أعظم القواعد العاصمة بإذن الله لمسيرة الدعوة والداعية من المزالق، والمخاطر، والانحراف غلوًا أو تقصيرًا، وفي الوقت نفسه من أعظم القواعد لاستمرار الدعوة وسلامتها.

ولذلك نتحدث عنها بشيء من التفصيل في الكلمات الآتية:

أهمية هذه القاعدة للدعاة:

إن مراعاة فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد من الأمور المهمة التي ينبغي لكل داعية أن يتعلمها خاصة في هذا الزمان، لعظم الحاجة إليها، ولأن الدعاة فيها بين إفراط وتفريط، فطائفة لم تعتد بالمصالح الراجحة فخالفت بذلك النصوص الصريحة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وطائفة تساهلت في اعتبار المصالح وتوسعت في استعمالها على حساب النصوص الشرعية الواضحة فلم تراع «فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد» ووفق الله طائفة فتوسعت بين هاتين الطائفتين فعملت «بفقه الموازنة بين المصالح والمفاسد» في ضوء نصوص الكتاب والسنة مراعية في ذلك الأصول والضوابط الشرعية مستفيدة من فهوم العلماء المحققين من سلف الأمة.

---

[103]() إعلام الموقعين: (3/3).

ضابط تحديد المصلحة والمفسدة:

ينبغي التنبه إلى أن المراد بالمصالح والمفاسد ما كانت كذلك في حكم الشرع لا ما كان ملائمًا ومنافرًا للطبع، ولا يكون تقريرها وفق أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية ودرء مفاسدها العادية[104].

من الذي يحدد المصلحة والمفسدة؟

ثم النظر في تقدير المصالح والمفاسد وتقريرها والترجيح بينها يحتاج إلى:

1- تقوى الله صادقة.
2- وتبصرة علمية نافذة.
3- معرفة بالواقع واسعة، ليتمكن الداعية من تحقيق مقصود الشريعة التي «جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها وأنها ترجح خير الخيرين وشر الشرين، وتحصل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما»[105].

وعلى هذا يتأكد أن:

1- أن تحديد المصلحة من المنظور الشرعي لا المنظور العقلي المجرد، أو الهوى أو نحو ذلك.
2- أن الذي يحدد المصلحة هو العالم الشرعي المتصف بالصفات السابقة من التقوى والعلم، وإدراك الواقع.

وهذا كلام أحسب أنه من النفائس.

ضوابط الموازنة بين المصالح والمفاسد:

إن الدعاة إلى الله وهو يعيشون واقع الدعوة ويحملون همومها قد يرون في واقع الحياة العملي تصادمًا بين حكمين شرعيين على نحو يعجز معه المكلف عن الجمع بينهما، فيضطر إلى اختيار أحدهما وإعطائه الأولوية التنفيذية.

وهذا التقديم كتقديم حكم على آخر في عالم الامتثال لا يكون عشوائيًا، بل يجب أن يكون وفق ضوابط، وهي بمثابة قوانين يستنير بها المكلف في ترجيح حكم على آخر ليخرج من الزحمة التي وقع

---

[104]() ينظر: الموافقات: (2/37-40).
[105]() ينظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية: (20/48).

فيها.

وإذا استحضرنا كثرة التزاحمات التي يقع فيها المسلم في عصرنا أدركنا أهمية الضوابط في حياتنا العملية، ويمكن تصنيفها إلى ما يلي:

الضابط الأول: الأكثر مصلحة أولى بالتقديم من الأقل مصلحة.

إذا تزاحمت مصلحتان لزم المكلف الحفاظ على المصلحة الراجحة والتضحية بالمصلحة المرجوحة، فيما إذا عجز عن الجمع بينهما وصيانتهما معًا.

وليس معنى هذا أن المصلحة المرجوحة التي أهدرت، لم تعد مصلحة، ولكن معناه أن المكلف لم يتمكن من الجمع بينهما وبين المصلحة الراجحة، فضحى بها مضطرًا لأن الشرع والعقل يحكم بلزوم الحفاظ على المصلحة العليا، ولو أدى إلى تفويت الأدنى.

والمصلحة المفوتة في هذه الحال لم تعد مطلوبة، لذا فإن تركها لأجل تحصيل المصلحة الراجحة، لا يعتبر تركًا لمطلوب شرعي[106].

ومن النصوص الدالة على هذا الضابط:

قال تعالى: [التوبة : 19].

وروى مسلم من حديث النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام، إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فقال لهم عمر: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله تعالى:

---

[106] () فقه الأولويات: ص: (197، 198).

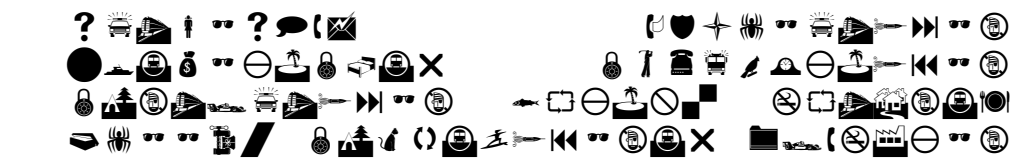

[التوبة: 19][107].

ففي هذه الآية يبين الله تعالى أن أعمال الحج من العمارة والسقاية والرفادة والسدانة، لا تساوي الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله فالإيمان بالله والجهاد في سبيل إعلاء كلمته، أعظم درجة عند الله من أعمال الحج، وما عظم ثواب الإيمان والجهاد على ثواب الحج، إلا بسبب كثرة منافعهما، وهنا بيان لأن كل ما ذكر من الأعمال الصالحة إلا أن عند الموازنة بقدم الأكثر منفعة. وقد يكون هذا وقت وهذا في وقت. وهكذا.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في تفضيل العمل المتعدي نفعه: «خير الناس أنفعهم للناس»[108].

وهذا التقديم الشرعي للعمل بناء على كثرة المنفعة فيه، يتمشى مع طبيعة الإنسان التي تميل إلى الأكثر منفعة.

قال العز بن عبد السلام: «واعلم أن تقديم الأصلح فالصالح... مركوز في طبائع العباد... فلو خيرت الصبي الصغير بين اللذيذ والألذ لأختار الألذ، ولو خير بين الحسن والأحسن لأختار الأحسن، لا يقدم الصالح على الأصلح إلا جاهل بفضل الأصلح أو شقي متجاهل لا ينظر إلى ما بين المسرتين من تفاوت»[109].

لذلك تتابعت أقوال العلماء على هذا الضابط:

قال ابن القيم: «وقاعدة الشرع والقدر تحصيل أعلى المصلحتين وإن فات أدناهما»[110]، وقال العز بن عبد السلام: «إذا تعارضت المصلحتان وتعذر جمعهما فإن علم رجحان إحداهما قدمت»[111].

---

[107] () أخرجه مسلم: (3/1499رقم1879)، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى.

[108] () أخرجه مسلم: (3/1520رقم1913)، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله.

[109] () قواعد الأحكام: (1/7).

[110] () إعلام الموقعين: (3/279).

[111] () قواعد الأحكام: (1/60).

وقال بدران أبو العينين بدران: «التعارض بين المصالح يوجب الموازنة بينهما فإن ثبت أن إحداهما أهم من الأخرى لزم إهدار المهم محافظة على الأهم»[112].

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن القيم لهذا الضابط:

1- أن السهر بعد العشاء ذريعة إلى تفويت قيام الليل، فإن عارضه مصلحة راجحة كالسهر في العلم ومصالح المسلمين لم يكره[113].

2 – وفيها: تأخير الحد لمصلحة راجحة، إما من حاجة المسلمين إليه، أو من خوف ارتداده ولحوقه بالكفار، وتأخير الحد لعارض أمر وردت به الشريعة كما يؤخر عن الحامل والمرضع، وعن وقت الحر والبرد والمرض فهذا لمصلحة المحدود، فتأخيره لمصلحة الإسلام أولى[114].

ومن الأمثلة في تطبيق هذه القاعد في الدعوة إلى الله تعالى:

1- لو تزاحمت وسيلتان أحدهما أكثر نفعًا من الأخرى ككلمة وعظية لعدد قليل من الناس، أو درس علمي مستمر لا شك أنه يقدم الدرس، مع عدم إهمال الأخرى، أو توجب إهمالها.

2- عند تزاحم عملين لدى داعية من الدعاة كأن يواصل عمله في الإغاثة، أو يتركه لخطبة وهو لا يجيدها، في تطبيق هذه القاعدة أن يواصل عمله الذي يجيده ولا يتركه لعمل آخر يقوم به غيره.

3- عند تعارض تربيته لأولاده مع وعظه العام وبخاصة إذا كان يتطلب سفرًا بعيدًا عن أهله فتطبيق هذه القاعدة أنه يترك السفر ويجتهد في تربية أولاده.

الضابط الثاني: الأكثر مفسدة أولى بالدرء من الأقل مفسدة:

إذا تزاحمت مفسدتان أو سيئتان بتعبير شيخ الإسلام ابن تيمية، ارتكب أخفهما بدفع أشدهما، وهذا الدرء للمفسدة الكبيرة باحتمال الصغيرة – كما يقول العز بن عبد السلام – طبيعة بشرية[115] لذا فقد اعتبر التشريع الإلهي هذه الطبيعة البشرية في كثير من أحكامه، ومن الأدلة على ذلك:

---

[112] () أصول الفقه: ص: (30).
[113] () إعلام الموقعين: (3/191).
[114] () إعلام الموقعين: (3/9).
[115] () أنظر: قواعد الأحكام: (1/7).

أ- قال تعالى في شأن القتال في الأشهر الحرم مبينًا أن القتال فيها أقل مفسدة من الصد عن سبيل الله:

[البقرة: 217].

فقد أنكر الكفار على المسلمين استباحة الأشهر الحرم والقتال فيها، فرد الله عليهم قائلًا: نعم القتال فيها كبير الإثم والجرم، ولكن الاعتداء على المسلمين والإسلام بالصد عن سبيل الله وقتل المسلمين وفتنتهم في دينهم وإخراجهم من ديارهم، كل هذا وغيره أعظم مفسدة وأكبر جرمًا عند الله من انتهاك حرمة الأشهر الحرم بالقتال فيها، وإذا كان كذلك فإن القتال فيها ضروري وواجب لدرء هذه المفاسد الكبيرة.

ب- وقال سبحانه حكاية عن الخضر مع موسى عليهما السلام:

إلى قوله:

[الكهف: 79 – 82].

فدفع مفسدة غصب الملك السفن بمفسدة أخف، وهي خرق السفينة، واحتمل مفسدة قتل الولد ليدفع مفسدة إرهاق والديه طغيانًا وكفرًا التي هي أعظم واشد من قتله.

وأما من السنة، فمنها:

أ- ما أخرجه مسلم عن أم سلمة ك قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع»، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا»([116])، قال ابن القيم في تعليقه على هذا الحديث: «إن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه، وأبغض إلى الله ورسوله، لا يسوغ إنكاره، وإن الله يبغضه، ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم، فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولد ما هو أكبر منه، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه، كما وجد سواء»([117]).

ب- وعن أبي هريرة ط قال: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس، فقال لهم ﷺ: «دعوه وهريقوا على بوله سجلًا من ماء - أو ذنوبًا من ماء- فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»([118]).

إن بول الأعرابي مفسدة لكنها أخف مما قد يصيبه من مرض بسبب قطع بوله، لهذا قال الإمام النووي معلقًا على هذا الحديث: (فيه دفع أعظم الضرر باحتمال أخفهما لقوله ﷺ: «دعوه» لمصلحتين:

إحداهما: أنه لو قطع عليه بوله لتضرر وأصل التنجس قد حصل،

---

[116]() أخرجه مسلم: (3/1480رقم1854)، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع.

[117]() إعلام الموقعين: (6/3-7) بتصرف.

[118]() أخرجه البخاري: (1/65رقم220)، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد.

فكان احتمال زيادته أولى من إيقاع الضرر به.

والثانية: أن التنجس قد حصل في جزء يسير من المسجد، فلو أقاموه أثناء بوله لتنجست ثيابه وبدنه ومواضع كثيرة من المسجد)[119].

وباستقراء هذه الأحكام وغيرها توصل علماء الشريعة إلى صياغة القاعدة التالية: «إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمها ضررًا بارتكاب أخفهما» وتفيد هذه القاعدة القطعية أنه إذ اجتمعت مفسدتان دفعت دفعت العليا بالتزام الدنيا «لأن مباشرة الحرام لا تجوز إلا للضرورة، ولا ضرورة في حق الزيادة» بل «الضرر لا يزال بمثله»[120] وما بالك بما فوقه، وإذا كان «الضرر يزال»[121] بما دونه، فإن هذا الدون من المفسدة المرتكب في هذه الحالة معفو عنه باعتباره حالة اضطرارية يرتفع معها الإثم[122].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمها إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرمًا في الحقيقة ... حتى وإن سمى هذا الفعل محرم... ويقال في مثل هذا... فعَل محرَّم للمصلحة الراجحة أو للضرورة أو لدفع ما هو حرام»[123] بل ما ارتكبه من المفسدة يعتبر مصلحة من حيث إنها تدفع مفسدة أكبر ما كانت تدفع لولا ارتكاب المفسدة الصغرى.

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن القيم لهذا الضابط:

أنك إذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب، أو سماع مكاء وتصدية فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيرًا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك فكان ما هم فيه شاغلًا لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشتغلًا بكتب المجون ونحوها، وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال، والسحرة فدعه وكتبه الأولى، وهذا باب واسع[124].

ومن أمثلة تطبيق هذه القاعدة في المجال الدعوي ما يلي:

---

[119] () شرح النووي على صحيح مسلم: (3/190).
[120] () مجلة الأحكام العدلية، مادة (25).
[121] () الأشباه والنظائر للسيوطي: ص: (83).
[122] () فقه الأولويات: ص: (214).
[123] () مجموع الفتاوى: (20/57).
[124] () إعلام الموقعين: (3/7).

عند إنكار المنكر، فلو أنكرت على الأبناء في البيت تقصيرًا في صلاة الجماعة، أو عمل محظور شرعي، ثم أدى بهم هذا الإنكار إلى أن يخرجوا من البيت ويختلطوا بالفساق، فتركهم على ما هم فيه أولى من الإنكار، وكما يطبق هذا على الأولاد في البيت يطبق في المجتمع بعامة كما أشار ابن القيم :.

الضابط الثالث: الجهة الغالبة أولى بالتقديم عند تزاحم المصالح مع المفاسد:

إن كل مصلحة مفسدة وكل مفسدة مصلحة، فلا توجد مصلحة خالصة ولا مفسدة خالصة في أي فعل من الأفعال، لذا كان الحكم للجهة الراجحة.

وعلى هذا الاعتبار تأسست الأحكام الشرعية لأنها تنظم حياة الناس في الدنيا، والدنيا لا يتمحض فيها الخير كما لا يتمحض فيها الشر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :: «جميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم، قد تحصل لصاحبه به منافع ومقاصد، لكن لما كانت مفاسدها راجحة على مصالحها نهى الله ورسوله عنها، كما أن كثيرًا من الأمور كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرة، لكن لما كانت مصلحتها راجحة على مفسدتها أمر به الشارع فهذا أصل يجب اعتباره»[125].

وقال الشيخ السعدي :: «إن الشارع لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مفسدته ومضرته خالصة أو راجحة، ولا يشذ من هذا الأصل الكبير شيء من أحكامه»[126] إلا أن المفسدة التي قد تتخلل الأوامر الشرعية والمنفعة التي قد تتضمنها النواهي الشرعية غير مقصودة للشارع ، وإنما يقصد الجهة الراجحة من المصلحة أو المفسدة.

وجريا مع هذا الميزان الشرعي الذي يراعي الجانب الأقوى فإنه إذا تزاحمت المصالح مع المفاسد فإن الحكم للجهة الغالبة، إما للمصلحة وإما للمفسدة، فإن كانت المفسدة أكبر درأناها، وإن كانت

---

[125]() الفتاوى الكبرى: (1/265).

[126]() الرياض الناضرة والحدائق النيرة: ص: (230).

المصلحة أكبر جلبناها.

وفيما يلي بعض النصوص الشرعية لهذا الضابط:

1- قال تعالى في شأن الخمر والميسر: [البقرة 219]؟

إن في الخمر والميسر منافع ومفاسد، إلا أن مفاسدهما أكبر، لذا كان تحريمها أولى، لأن المعول عليه في التحريم هو غلبة الضرر على النفع، وقد ذكروا أن منافع الخمر تتمثل في الربح التجاري وفي الالتذاذ بشربها، ومنافع الميسر تتمثل في أخذ أموال الغير بلا مقابل وبلا تعب، إلا أن هذه المنافع تقابلها أضرار كثيرة فيهما فرجحت كفة التحريم[127].

2- **وامتنع النبي صلى الله عليه وسلم عن نقض بيت الله الحرام وإعادة بنائه على أساس إبراهيم عليه السلام،** لأن المصلحة في إعادة بنائه عارضها مفسدة أكبر متمثلة في امتناع قبول بعض المسلمين ذلك لحداثة عهدهم بالكفر.

قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين عائشة ك: «يا عائشة لولا أن قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير بكفر- لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين باب يدخل الناس وباب يخرجون»[128].

قال ابن القيم :: «لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام، عزم على تغيير البيت، ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك –مع قدرته

---

[127]() انظر: تفسير ابن كثير: (1/373).

[128]() أخرجه البخاري: (1/43رقم126)، كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه، ومسلم: (2/968رقم1233)، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبناؤها.

عليه- خشية وقوع ما هو أعظم منه مع عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر»[129].

3- كما امتنع ﷺ عن قتل المنافقين، فقد ابتلي ﷺ وأصحابه في المدينة بالمنافقين، ورغم أن كيدهم ومكرهم كان يفوق كيد ومكر الكفار فقد امتنع ﷺ عن قتلهم لكي لا يقال إن محمدًا يقتل أصحابه، ولأن قتلهم ذريعة إلى النفور من الإسلام، فهذه المفاسد أكبر من مصلحة قتلهم.

وباستقراء مثل هذه الأحكام فهم الفقهاء أن مقصود الشارع عند تزاحم المصالح مع المفاسد، إنما يتحقق بمراعاة الجانب الأغلب.

قال ابن تيمية :: «القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها... فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورًا به بل يكون محرمًا إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته»[130].

وقال العز بن عبد السلام :: «تقديم المصالح الراجحة على المفاسد المرجوحة محمود وحسن، ودرء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن»[131].

وقال الشاطبي: «فالمصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنما تفهم على مقتضي ما غلب، فإذا كان الغالب جهة المصلحة فهي المصلحة المفهومة عرفًا، وإذا غلبت الجهة الأخرى فهي المفسدة المفهومة عرفًا»[132].

ومن خلال هذه الأدلة وتلك الأقوال ترى ثبوت هذا الضابط، وهو ضابط مهم خصوصًا في عصرنا الذي يندر فيه أن تجد مصلحة دون أن تزاحمها مفسدة، نظرًا لغلبة الهوى وامتناع كثير من الناس عن الاستضاءة بنور الوحي، فيجد المسلم نفسه في مواقف كثيرة محرجًا، تتجاذبه جهتان متناقضتان: جهة الدين الذي يحرم عليه كذا وجهة الدنيا

---

[129] () إعلام الموقعين: (6/3-7).
[130] () الاستقامة: (2/216).
[131] () قواعد الأحكام: (1/4).
[132] () الموافقات: (2/26).

التي تقعسه عن هذا الواجب.

بل إن التزاحم بين المصالح والمفاسد قد يكون داخل الجهة الواحدة بأن تتزاحم مصلحة دينية مع مفسدة دينية أو مصلحة دنيوية مع مفسدة دنيوية، إلا أن تزاحم ما هو دنيوي مع ما هو أخروي هو الذي يقلق بعض الدعاة كثيرًا لخوفهم من ارتكاب المحظور الشرعي، لذا فإن امتلاك موازين الترجيح في المواقف التي يتزاحم فيها الصلاح بالفساد أمر مهم بالنسبة للمسلم وخاصة الدعاة، وإلا بقي دائمًا محتارًا لا يدري ماذا يقدم وماذا يؤخر؟!

وهذه الموازين هي نفسها موازين الترجيح بين المصالح المتفاوتة أو بين المفاسد المتفاوتة.

ومن الأمثلة التطبيقية لهذا الضابط:

1- أن إذا كانت كفة المصلحين مرجوحة فلا ينبغي الخروج على أئمة الجور، لأن البقاء تحت ظل حكم جائر يخل بمصالح حاجية، بينما الخروج عليه يفوت مصالح ضرورية، إذ سيؤدي إلى إهلاك نفوس، وإتلاف أموال، لذا يحسن بالفئات المصلحة في الأمة أن تهتم بالدعوة كما حصل لبعض الفرق الإسلامية التي خرجت على أئمة الجور فتسببت بخروجها في أضعاف أضعاف ما كانوا عليه من الجور، والأمة ترزح في بقايا تلك الشرور إلى الآن[133].

2- ومن الأمثلة التطبيقية أيضًا في وسائل الدعوة ما سبق من مثال: المشاركة في بعض وسائل الإعلام المتضمنة لكثير من المفاسد، فمما ينبغي دراسة الأمر في واقع المصالح المرجوة والمفاسد المترتبة عليها، وأي جهة غلبت يعمل به.

3- ومن الأمثلة أيضًا: بعض المشاريع المشتركة مع غير المسلمين مثل المشاريع الإغاثية فهذه أيضًا خاضعة لجرد المصالح والمفاسد الآنية والمستقبلية، وقد لا تأخذ حكمًا واحدًا لكن ينبغي التأكيد على توضيح المصالح والمفاسد بوضوح ليبنى الحكم بناءً سليمًا، ويتخذا الموقف السليم.

الضابط الرابع: جهة المفسدة أولى بالدرء عند تساوي المصالح مع المفاسد:

---

[133]() إعلام الموقعين: (3/59).

إذا تساوت المصالح مع المفاسد، فإن تمكنا من تحصيل المصلحة ودرء المفسدة في آن واحد فحسن، وإن لم نتمكن من الجمع بين التحصيل والدرء، قدمنا دفع المفسدة على جلب المصلحة ولو نجم عن ذلك الحرمان من منافع عملا بقاعدة: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»[134].

ومن الأمثلة التي ذكرها العلماء لهذه القاعدة:

1- دفع الموت عن النفس بموت الغير، كأن يهدد شخص بالقتل إن لم يقتل غيره، فهنا تساوت مصلحة الحفاظ على النفس مع مفسدة إزهاق نفس الغير، لكن بما أن القتل مجمع على تحريمه، والصبر مطلوب في حق من أكره على ذلك، فإن درء قتل الغير مقدم على درء قتل النفس[135].

2- إذا كان تصرف الجار في ملكه يؤدي إلى إيذاء جيرانه كاتخاذ فرن يؤذيهم بدخانه أو معصرة يؤذيهم برائحتها أو مطحنة تؤذي بضجيجها، منع من ذلك، لأن في هذه الأعمال مصالح حاجية لنفسه، ولكنها تؤدي إلى مفاسد مخلة بحاجات جاره، والمفاسد إذا تزاحمت مع المصالح وكانت في درجة واحدة درئت المفاسد.

ومن الأمثلة على تطبيق هذه القاعدة: درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، في الدعوة ووسائلها:

1- عند وجود ابن أو تلميذ أو أي مدعو متساهل في بعض الأحكام الشرعية وعند أمره أو نهيه سيتعدى أذاه إلى الآخرين، فهنا تترك مصلحة دعوته وأمره لأنها ستؤدي إلى مفسدة أكبر وهي التعدي على الآخرين، فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

2- عند استخدام وسائل متأرجحة بين الحل والحرمة من المستجدات للدعوة، مثل بعض الأناشيد التي لا تختلف على الأغاني المحرمة إلا بأشياء يسيرة، لكن عند استخدامها ستؤدي إلى مفاسد منها: فتنة المشاهدات، أو المستمعات، والتساهل في الوصول إلى الأغاني المحرمة، فلا شك أن المصلحة المدعاة هنا باستخدامها تترك

---

[134]() ينظر: الأشباه والنظائر لابن السبكي (1/105) وللسيوطي: ص:(97)، ولابن نجيم: ص: (90).

[135]() قواعد الأحكام: (1/79-83).

بسبب المفاسد المترتبة عليها فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.

وبناء على ما سبق فعلى الدعاة إلى الله تعالى التحلي بهذا الفقه العظيم فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد لأن ذلك يجعل الداعية يحصل في دعوته مصالح عظيمة، ويدفع مفاسد كثيرة.

وإلا فمن لم يوازن ما بين الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية، فقد يدع واجبات، ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع، كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعًا، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور، ويرى ذلك من الورع[136].

النتائج المترتبة على الإخلال بهذه القاعدة:

إن غياب فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد عند بعض الدعاة وطلبة العلم، جعلهم يفعلون أمورًا يجلبون بها مفاسد، ويفوتون مصالح، وهو يظنون أنهم يحسنون صنعا.

فكم من مصلحة فاتت، أو مفسدة أحدثت باسم الدعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو باسم الإنكار على أهل البدع.

انظر يا رعاك الله إلى الذين كانوا يقتلون ويؤذون المسلمين والمسلمات والمعاهدين باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الجهاد –كما زعموا- فكم سببوا من مفاسد؟ وكم فوتوا من مصالح؟ وحسبك من مفسدة كبرى الصد عن الإسلام والمسلمين، وحسبك من تفويت مصلحة كبرى، وهي عدم تقدم الدعوة إلى الله[137].

وبناء على ذلك يمكن ذكر بعض النتائج السلبية المترتبة على الإخلال بهذه القاعدة:

1- تفويت مصالح عظمى، ومن أعظمها عدم وصول الإسلام الحق إلى الناس.
2- حصول مفاسد كبرى من القتل والاعتداء على الأعراض والأموال، وهذا ظاهر بوضوح لمن تأمل في أساليب من ينتهج التغيير بالقوة.

---

[136] () مجموع الفتاوى: (10/512)، (30/193).
[137] () انظر: منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر: ص: (37).

3- تمييع الدين والتساهل فيه وتتبع الرخص، وهذا ظاهر فيمن غلب المصالح الجزئية على ما هو أكبر، ولم يتحمل مخالفة الناس عند رؤيته لغلبة الفسق وأصحابه.
4- عدم الوصول إلى النتائج الإيجابية المثمرة المرجوة لاختلاط المفاهيم وتضارب الأعمال، وتناقض المناهج، وذلك لغلبة النظرة الأولية في تقدير المصالح والمفاسد.
5- اختلال المفاهيم الشرعية لأن النظرة لم تكن مبنية على الفهم السليم للنصوص الشرعية والقواعد العلمية.
6- وضع الأدلة الشرعية في غير موضعها الصحيح ولي أعناقها، وإغفال بعضها وبخاصة ما لم يوافق ما يريده المستدل، وهذا ظاهر لمن تأمل في بعض المناهج الدعوية عند اتخاذ موقف أو نازلة من النوازل والدارس للمواقف حول الأحداث الأخيرة في البلاد الإسلامية يدرك هذا بوضوح.
7- تأخر الدعوة – بمفاهيمها الشمولية وأفرادها- ورجوعها إلى الوراء نتيجة قيامها على عدم التوازن في المصلحة والمفسدة.
8 –خروج قيادات دعوية، ومفتين غير مؤهلين وذلك لعدم فقههم التطبيقي لهذه القاعدة فيضلون ويضلون.

وأخيرًا: أقول: إن من أعظم ما تحتاجه الدعوة في هذا الوقت ومن أعظم ما يحتاجه الدعاة دراسة هذه القاعدة بتأمل وتدبر، وبفهم وتطبيق، وأن يعمل لذلك البرامج والدورات النظرية والتطبيقية، وإذا كان علماؤنا وأسلافنا بذلوا جهودًا جباره في إبراز هذه القاعدة وتطبيقها في الأحكام، فعلى علماء هذا العصر ودعاته أن يستفيدوا من ذلك الجهد بالتطبيق في الواقع الدعوي كي تسير السفينة إلى ساحل النجاة.

لا أزعم أن هذه الصفحات كافية وإنما هي بيان للأهمية.

وقد ذُهلت عندما قرأت بعض الرسائل والمقالات التي أدت ببعض المنتهجين للتغيير بالقوة إلى إلغاء هذه القاعدة، بل والتقليل من شأنها، فتساءلت ماذا يريد هؤلاء وأمثالهم؟؟!.

والذهول نفسه أو قريب منه من يغلب المصالح الجزئية أو الفردية أو لا يريد عمله ودعوته وفق المصالح والمفاسد الشرعية

فانتهجوا منهج التساهل غير المنضبط فأدّى بهم إلى تغيير كثير من الأحكام بل وإلى السخرية من بعضها كمن يرى أن بعض الأحكام الشرعية كالاهتمام بأمر اللباس أو اللحية أو حجاب المرأة أو التساهل في التشبه بالكفار قشور لا يجب النظر إليها.

ويبقى كلمة أخيرة وهي إجابة على سؤال مهم، وهو سؤال تطبيقي وهذا السؤال يقول: مَنْ الذي يقدر المصالح والمفاسد، أو غلبة أحدهما على الآخر؟ والجواب بلا شك هم أهل الفقه والنظر والعلم والدراية والخبرة بعد الاستعانة بأهل الاختصاص إذا كانت القضية أو المسألة تحتاج إلى مختصين.

وبناء على هذا فليس لكل من سلك طريق الدعوة مؤهل لهذا النظر، ولاسيما في الحوادث الكبرى، والنوازل العظمى التي تعم الأمة بأكملها. كما حدث في الحوادث الكبرى في هذا الزمن وأحدثت تأثيرًا عظيمًا تباينت فيه الآراء واستعجل مستعجلون حسبوا أنهم على فقه ودراية، ولمزوا غيرهم، وتعالت أصواتهم وأثرت على الناس، وما أن يذهب وقت وإلا ويستبين لهم قبل غيرهم أن نظر أهل العلم كان هو الحق والصواب، وما أوتوا هم إلا من قبل استعجالهم وقلة نظرهم وضعف تقديرهم للمصالح والمفاسد.

□□□□□

القاعدة السا
البناء والمع

مدخل: (فلاح العباد وصلاح البلاد مرتبط بنشاط الدعاة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو قل: بالبناء للخير، والمعالجة لما يطرأ من الشرّ).

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوام الدعوة إلى الله رب العالمين، إذ الدعوة إلى الله تعالى لا تعدو في مجملها أن تكون دعوة إلى التحلي بالمعروف والأمر به بجميع أنواعه، وهو ما يعبر عنه بالبناء، سواء كان لعمل الأفراد أو المؤسسات أو المجتمعات، ومن هنا فإنه يجب على الدعاة إلى الله تعالى أن يولوا هذا الجانب وافرًا له الاهتمام والعناية، كما أن على أهل الدعوة أن يبعدوا عن المنكر وأن يسلكوا سبيل المعالجة له والنهي عنه، لأن غاية الدعوة التمكين لدين الله تعالى في الأرض، ولا يتحقق ذلك في عالم الواقع إلا إذا كانت راية المعروف منصورة وراية المنكر مدحورة.

مفهوم البناء والمعالجة:

المعروف: اسم جامع لكل ما شرعه الله تبارك وتعالى في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، ويدخل في ذلك دخولًا أوليًا الواجبات ثم المندوبات، لأن كلا من الواجبات والمندوبات مأمورات شرعية، والله تبارك وتعالى كما أمر بالواجبات أمر بالمندوبات، وعلى هذا فمن أمر غيره بالتوحيد أو الصلاة أو ببر الوالدين أو بالنظافة أو بالمحافظة على السواك كان أمرًا بمعروف، وبذلك يتبين أن الأمر بالمعروف هو مطالبة الغير بفعل المأمور الشرعي واجبًا كان أو مندوبًا.

أما المنكر فهو: اسم جامع لكل ما حذر الله تبارك وتعالى منه وزجر عن اقترابه وارتكابه مما ورد في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ سواء أكان ذلك مما يخل بالدين كالشرك، أم بالعقل كالخمر، أم بالعرض كالزنا، أم بالنفس كالقتل، أم بالمال كالسرقة، وغير ذلك من المحرمات التي أنكرها الشرع وأمر بمحاربتها والقضاء عليها، وعلى

هذا فالنهي عن المنكر هو مطالبة الغير بالكف عن فعل ما حرمه الشارع لما فيه من تعد لحدود الله تعالى ومخالفة لمنهجه سبحانه.

ومن هذا التعريف الموجز يمكن استخلاص الفرق الجوهري، بين المعروف والمنكر فالمعروف دائر في فلك الفضائل، والأمر به يعني الحث على فعل تلك الفضائل والتحلي بها.

والمنكر دائر في فلك الرذائل، والنهي عنه يعني الحث على ترك تلك الرذائل والتخلي عنها[138].

وعلى هذا المفهوم ندرك ما يلي:

1 – أن الأمر المباشر بشعيرة أو عمل خير صغيرًا في نظر الناظر أو كبيرًا هو من الأمر بالمعروف وهو من البناء المقصود.

2 – كما أن مشروعًا من المشاريع الخيرية علمية كانت، أو إغاثية، أو إعلامية، أو غيرها، وسواء كان القائم عليه فردًا أو مؤسسة أو مجموعة أفراد أو دولة، وسواء كانت فائدته لعدد محدود أو مجموعة أو لأسرة أو لمجتمع أو للعالم، فكل هذا أمر بمعروف وهو من البناء المقصود المنشود.

3 – ويدخل في ذلك أعمال الأفراد الخاصة الجزئية، ككتابة مقالة تدعو إلى فضيلة أو مؤسسات الدولة التي تهتم بالتعليم والتربية أو التوجيه أو الإرشاد، سواء كانت بمسمى الأمر بالمعروف أو بمسيات أخرى، كل ذلك داخل في المفهوم المقصود بالبناء.

كما ندرك أن:

1 – النهي عن أي رذيلة من فرد أو أفراد بنهي مباشر أو غير مباشر، هو نهي عن منكر، وهو من المعالجة المقصودة.

2 – كما أن معالجة أي مشكلة تؤثر على الفضائل أو تنشر الرذائل، أو مكافحة وسيلة محرمة على مستوى الأفراد أو المجتمع أو مؤسسات، كمكافحة التدخين – مثلًا – هو من النهي عن المنكر وهو من المعالجة المقصودة.

3 – ويدخل في ذلك المشاريع الكبرى التي تقوم بها الدولة كمكافحة السرقة، أو الرشوة، أو المخدرات، وكل ما يخل بتماسك المجتمع ووحدته، كل ذلك من النهي عن المنكر وهو من المعالجة

---

[138]() قواعد أساسية في مسيرة الدعوة الإسلامية: ص: (15- 16).

المقصودة.

بهذا المفهوم الشامل الذي يجب أن نتعامل مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتقوم المشاريع البنائية، وتحيى طرق المعالجة المطلوبة، هذا هو الفقه المنشود.

مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عامة:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس شأنًا خاصًا لمسلم دون آخر، بل هي مسئولية عامة مصدرها التكليف الشرعي العام: «من رأي منكم منكرًا فليغيره» ([139])، وكلمة «من» من ألفاظ العموم، فكل مسلم آمن بالله ربا وبالإسلام دينًا مكلف شرعًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يستحق ولاية الله ورسوله والذين آمنوا إلا إذا قام بهذا الواجب: [التوبة: 71].

إن القيام بهذا الواجب فريضة شرعية، وهو مطلوب في كل حال، وفي كل وقت، سواء أكان المسلم غنيًا أو فقيرًا، قويًا أو ضعيفًا، فردًا أو جماعة، كثير العلم أو قليله، والذي يتنوع ويختلف إنما هو المنازل والدرجات، فهذه تختلف حسب الأحوال والأوضاع.

وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة صريحة لترسيخ معناه في الأذهان وتوثيق مغزاه في الوجدان ليكون موضع الرعاية ومحل العناية لدى كل مسلم غيور على دين الله ومحارمه، وهذه النصوص لها جانبان: جانب ترغيبي، وجانب ترهيبي.

أما ما يتعلق منها بجانب الترغيب فمن ذلك:

1 - أن الله تعالى أبرأ ذمة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من عهدة هذا التكليف الشرعي إذا قام به كما ينبغي، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

([139]) أخرجه مسلم: (1/69رقم49)، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان.

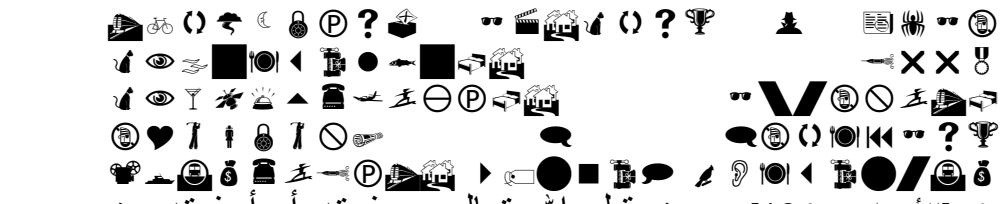

[الأعراف: 164]، ومن قبل الله تعالى معذرته أبرأ ذمته من التكليف.

2 - ومن ذلك أن الله تعالى وعد الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بالفلاح في العاجلة والآجلة، فقال سبحانه وتعالى:

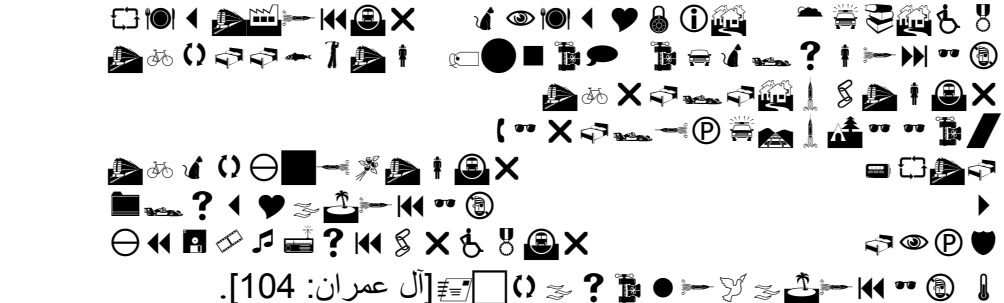

[آل عمران: 104].

3 - ومن ذلك أن الله تعالى شهد بالخيرية للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من دون سائر الناس، في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه:

[آل عمران: 110].

4 - ومن ذلك أن الله تعالى وعد الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بالرحمة، فقال سبحانه:

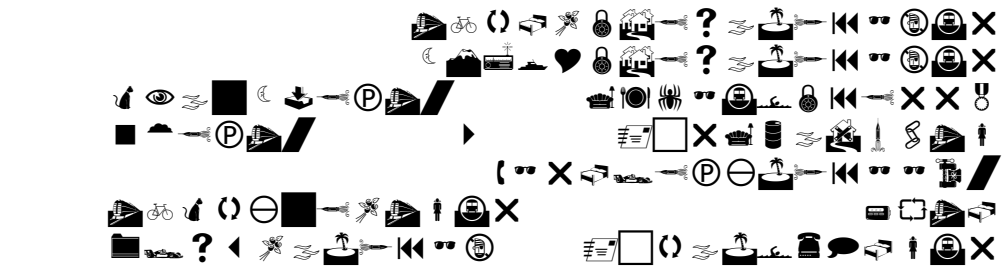

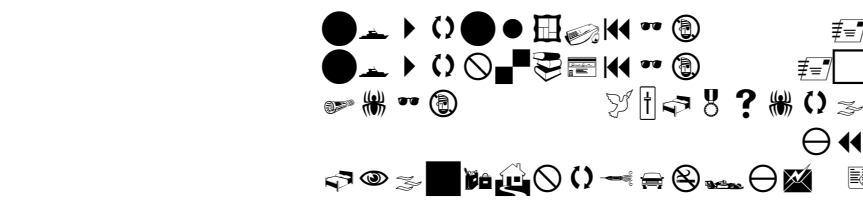
[التوبة: 71].

5 - ومن ذلك أن الله تعالى جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببا للنجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، فقال سبحانه:

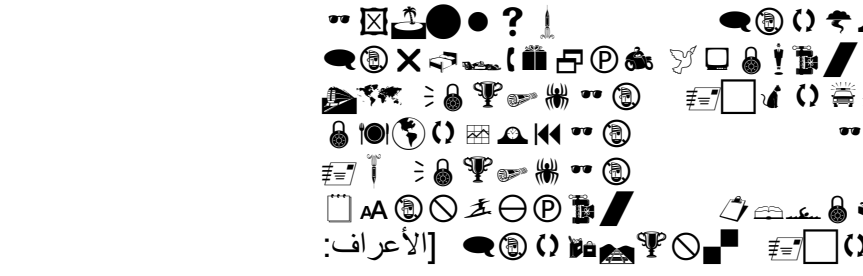
[الأعراف: 165].

وأما ما يتعلق منها بجانب الترهيب، فمن ذلك:

1- ترتيب اللعن على ترك التناهي عن فعل المنكر، كما قال سبحانه:

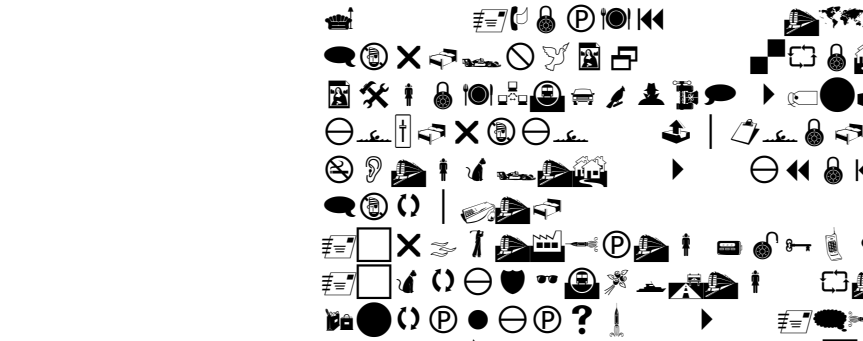
[المائدة : 78 – 79].

2- ومن ذلك التصريح بمعاقبة من تساهل في القيام بذلك الأمر والنهي، ففي الحديث الذي حسنه الإمام الترمذي : عن حذيفة بن اليمان ط أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «و الذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم

عقابًا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم»([140]).

وهذه النصوص من الكتاب والسنة الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو قل: في البناء والمعالجة وعاها سلفنا الصالح رضوان الله عليهم حق الوعي فكانوا يحذرون أشد التحذير من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فقد أخرج الطبراني عن أبي جحيفة أن علي بن أبي طالب ط قال: «إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبه المعروف، وينكر قلبه المنكر، نكس فجعل أعلاه أسفله»، وإذا نُكِّس لم يبق فيه من الماء شيء.

ومن خلال تلك النصوص وأقوال السلف يتضح بجلاء وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه عاصم وقاصم: عاصم من الهلاك لمن قام به خير القيام، وقاصم لظهر كل من أهمله وهو قادر على القيام به([141]).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سفينة للنجاة أو للعطب كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حيث قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا ،كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ،فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسفَلَهَا،فكَانَ الذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَسْقَوْا مِنَ المَاءِ مَروا عَلَى مِنَ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا لَو أَنّنا أَخَرَقْنَا في نصِيبِنَا خَرْقًا ،وَلَمْ نُوْذِ مَنْ فَوْقَنَا ؟فَإِن تَرُكُوهُمْ وَما أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجوْا جَمِيعًا» ([142]).

بأيهما يبدأ؟

اقترن ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أكثر الآيات والأحاديث التي تحث على القيام بهذه الفريضة، وجاء ذكر النهي عن المنكر وحده في مواضع أخرى، وذلك مثل قوله تعالى عن بني إسرائيل: [illegible]

---

[140]() أخرجه الترمذي: (4/468رقم2169)، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[141]() انظر: قواعد أساسية، في مسيرة الدعوة الإسلامية: ص: (16-18).

[142]() أخرجه البخاري: (3/182رقم2493)، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه.

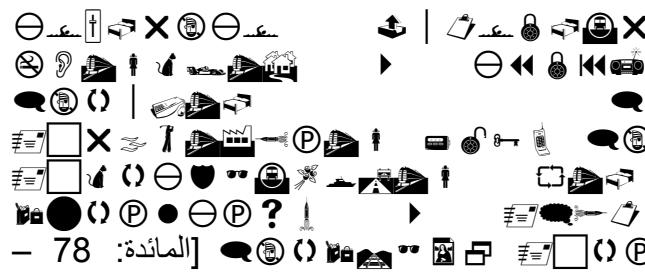
[المائدة: 78 – 79].

وجاء إفراد النهي عن المنكر في الحديث: «من رأى منكم منكرا، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[143]، وهذا التنوع في ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدل على أن كلا منهما قد يطلب في ظروف أو أحوال معينة، وأنهما قد يجتمعان أو ينفردان، والذي يقرر دور كل واحد منهما تمكن أحدهما في المجتمع، فإذا تمكن المنكر كما كان الحال في مكة قبل الهجرة، أو كما هو في بعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يبرز ويأخذ دوره في عملية الإنكار وطلب التغيير للمنكر الأكبر، وإذا تمكن المعروف وهيمن على المجتمع فإن النهي عن المنكر يبرز ويأخذ دوره لمعالجة الظواهر الشاذة، كما كان الحال بعد الهجرة إلى المدينة، وقيام المجتمع المسلم فيها، وكما هو الحال في مؤسسات إسلامية أو جماعة من الناس رضيت بحكم الإسلام فيها [144].

ولعل هذا الفهم هو الذي تدل عليه مجموع الآيات والأحاديث الواردة في هذه الفريضة.

وبناء على هذا الفهم، يترتب ما يلي:

1 – أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، متلازمان، لا غنى بواحد عن الآخر بالنظر لمجموع الناس.

2 – أنهما طريقان متوازيان يجب العمل بهما جميعًا، فلا يثرب على عامل في أحدهما ولم يعمل بالآخر، فكل منهما في الأهمية سواء.

3 – أن تقديم الأوْلى في زمان أو مكان أو حال خاضع لاجتهاد أهل العلم، ولقدرات الآمر والناهي.

---

[143] () سبق تخريجه.

[144] () قواعد الدعوة إلى الله: ص: (148- 149).

من فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنكار المنكر:

إذا كان إنكار المنكر واجبًا شرعيًا لا تبرأ الذمة إلا بالقيام به حماية لدين الله تعالى وغيرة على محارمه، فإنكار المنكر له فقه يجب على الداعية إلى الله تعالى أن يتنبه له حتى يكون الإنكار محققًا للحكمة الشرعية من فرضية القيام به، ومن فقهه ما يلي:

1 – الإخلاص لله سبحانه وتعالى فيه، وتجديده بين الحين والآخر، ومعاهدة القلب ألا ينحرف في مقاصده من أن يكون القصد منحرفًا رياء أو سمعة أو طلب دنيا أو شهرة، أو غير ذلك. والنصوص في ذلك أكثر من أن تحصر، ومنها قوله تعالى: [البينة : 5] وقوله: [الزمر : 2]، وقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى»[145].

2 – ومن مقرراته: العلم، والمقصود به العلم بالمعروف بأنه معروف، والعلم بالمنكر بأنه منكر، وهذا يبنى على العلم الشرعي المستنبط من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وسيرته، وأحواله عليه الصلاة والسلام، والذي فصّله أحوال السلف الصالح رحمهم الله تعالى. كما هو أيضًا مفصل في القاعدة الثالثة.

3 – فقه المصالح والمفاسد بمعنى أن يتفحص الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر نفسية المأمور والمنهي، فإن غلب على ظنه أنه لو أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فإن ذلك سيؤدي إلى ضرر أكبر حرم عليه حينئذ أن يأمره وينهاه.

ومثال ذلك: أن ترى زيدًا من الناس محافظًا على صلاته لكنه حالق لحيته، ولا شك إن إعفاء اللحية معروف لأنه اتباع لسنة النبي ﷺ وحلقها منكر لأنه مخالف لهدي النبي ﷺ، فإذا غلب على ظنك أنك لو أنكرت عليه حلق اللحية لأخذته العزة بالإثم بحيث يجره ذلك إلى ترك الصلاة، فإنك حينئذ لا تنكر عليه

---

[145]() أخرجه البخاري: (1/1/رقم1)، كتاب الوحي، باب بدء الوحي.

حلق اللحية بناء على القاعدة الشرعية بأنه يرتكب الضرر الأصغر في سبيل إزالة الضرر الأكبر، ولا شك أن ضرر ترك الصلاة أكبر بكثير من ضرر حلق اللحية. كما سبق ذلك في قاعدة: فقه المصالح والمفاسد.

4- ألا ينكر على أحد في شيء مما هو من مسائل الاجتهاد في الفروع، لأن الخلاف في الفروع ليس بدعًا في الدين، وإنما هو مما يجعل الناس في سعة من أمرهم كما أثر عن عمر بن عبد العزيز : أنه قال: «ما وددت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا، إن اختلافهم رحمة».

ولا يعني هذا أن يتنقل من قول إلى قول حسب رغبته، بل هذا الفعل مذموم، وربما يؤدي إلى الانحراف والبعد عن الدين، وإنما هذا راجع إلى أهل العلم الذي يأخذ قولًا بدليله ويترجح له، كما لا يعني عدم المناقشة والمذاكرة لما يراه الشخص راجحًا وغيره يراه مرجوحًا.

5 - أن يحذر الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من الزهو بحاله والعجب بنفسه حال أمره ونهيه حتى لا يتعالى على من يأمره وينهاه فيعامله معاملة المغرور المتكبر، فإن تلك مزلة خطيرة يوقع فيها الشيطان حتى يجعلها سببًا في أن يعرض العاصي عن قبول دعوة الإيمان ليوغل في الانحراف والطغيان، بل يجب على الآمر والناهي أن يتواضع لله تبارك وتعالى فيمن يأمره وينهاه فيدعوه إلى الخير ويحذره من الشر برفق ولين وسماحة خلق، فليس هذا العاصي بأشد جرمًا من فرعون الذي نازع الله تبارك وتعالى في خاصيتين من خصوصياته وهما الألوهية والربوبية حين قال: [illegible] [القصص : 38]، وحين قال: [illegible] [النازعات : 24]، وليس ذلك الآمر والناهي بأشد إيمانًا من نبي الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام ومع ذلك فإن الحق تبارك وتعالى حين بعثهما إليه أمرهما بقوله: [illegible]

[illegible] [طه : 44].

والله تبارك وتعالى لم يجعل سبب الالتفاف حول نبيه محمد صلى الله عليه وسلم النبوة والرسالة، وإنما جعل سبب الالتفاف حول نبيه محمد صلى الله عليه وسلم سماحة خلقه وطيب معشره وكرم تعامله حين قال سبحانه: [illegible] [آل عمران: 159].

وعلى الداعية إلى الله تبارك وتعالى – في حال أمره ونهيه – أن يجعل هذا الفقه هديه الذي لا يحيد عنه، كيف لا؟ وهو هدى قدوته في هذا الطريق نبي الرحمة والهدى عليه الصلاة والسلام الذي كان يأمر بلين وينهى برفق، فإذا أدماه قومه بالحجارة مقابل نصحه لهم رفع يديه إلى السماء قائلًا: «اللهم اغفر لقومي فأنهم لا يعلمون».

وقد ورث سلفنا الصالح – رحمهم الله تعالى – جميعًا هذا الهدي النبوي الكريم ممن بعثه رحمة للعالمين عليه الصلاة والسلام فأثمرت دعوتهم ونفع الله تعالى بأمرهم ونهيهم، فقد كان أصحاب ابن مسعود ط إذا مروا بقوم رأوهم على منكر قالوا لهم: «مهلًا رحمكم الله، مهلًا رحمكم الله»، من غير تعنيف عليهم أو تسفيه لهم.

وقد أُثِر عن سفيان الثوري : أنه قال: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر عدل بما ينهى، عالم بما ينهى»، وذلك لأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ليس جبارًا متسلطًا وإنما هو بمنزلة الطبيب الحاني فلا يعنف ولا يتعسف، بل يأمر وينهى بدافع النصيحة للمسلمين، وبوازع الرحمة لهم والشفقة عليهم، لإنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من مغبة العصيان والمخالفة، والمناسب لذلك إنما هو لين الجانب وكريم التخاطب.

6 - أن يتحين الآمر والناهي وقت إقبال القلوب، فإن للقلوب إقبالًا

وإدبارًا فإذا علم الآمر والناهي أن قلب من يريد أمره ونهيه في حالة إقبال تعين عليه حينئذ أن يأمره وينهاه، فذلك أدعى إلى أن يقع الأمر والنهي في قلبه موقع الرضا والقبول، كأن يكون بذلك تأثرًا بالغًا جدًا، فلا شك أن استغلال هذا الظرف لتذكيره بالله تعالى والخوف من الوقوف بين يديه وأن الدنيا لا محالة منقطعة زائلة، ثم النزول في حفرة ضيقة موحشة لا يكون بعدها إلا جنة المأوى أو النار التي تتلظى، لا شك أن مثل هذا في مثل هذا الظرف سيكون مفيدًا فائدة كبيرة في الوصول إلى قلبه، ومن ثم هدايته إلى الخير بإذن الله تبارك وتعالى.

7 – الصبر، والحلم، والتحمل، وبعد النظر، وفقه الأولويات، وسائر الأخلاق النفسية والعقلية، كلها عناصر مهمة في فقه الأمر والنهي، أو البناء والمعالجة، وتركت التفصيل فيها لوضوحها لطالب العلم والداعية، والإشارة تغني عن الإطالة.

وفقه البناء والمعالجة ليس حكرًا على هذه الجوانب السابقة، بل هو نور يقذفه الله جل شأنه وعز سلطانه في قلوب الصادقين من عباده، فمن صدق النية وتجرد لله تعالى في أمره ونهيه فتح سبحانه على بصيرته من فقه الإنكار ما يجعله يحسن التصرف في كل موقع بما يناسبه ويتلاءم معه: [illegible] [البقرة: 269][146]. وقال سبحانه: [illegible] [يوسف: 108].

مراتب تغيير المنكر:

المنكر الذي يجب أن تتظافر الجهود لإزالته وتغييره له ثلاث مراتب بينها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،

[146]() قواعد أساسية في مسيرة الدعوة الإسلامية: ص: (21-25) بتصرف.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[147].

المرتبة الأولى:

التغيير باليد، وهذا يأتي فيمن للمنكر عليه ولاية، كالحاكم مع رعيته، والأب مع أولاده، والمعلم مع طلابه، والتغيير باليد حسم للمنكر وقطع لدابره، واجتثاث له من عميق جذوره حتى يصبح أثرًا بعد عين، ولذلك كانت هذه المرتبة أعلى درجات مراتب التغيير.

ويرد السؤال: متى يُلجأ إليها؟ والجواب إذا احتيج إليها، بمعنى أنها ليست أولى المراتب، فيبدأ بها، ولكنها أعلا المراتب إذا تطلب الأمر فتنبه.

المرتبة الثانية:

التغيير باللسان، لمن لا يملك سلطة التغيير باليد، ويكون ذلك بالإرشاد والتوجيه والوعظ عن طريق التخويف بالله تبارك وتعالى والتحذير من مغبة إتيان هذا المنكر أو الإصرار عليه، ومع ذلك له ضوابط مهمة، ومنها:

1- التدرج في هذا الإنكار فتستخدم من الألفاظ والعبارات مما يظن أنه يحقق النتيجة، فيبدأ بالكلمة الرقيقة الودود، واستعمال صيغ العموم دون ذكر اسم صاحب المنكر إتباعًا للسنة، وأنفع للعلاج، وما يدفع بالأدنى لا يلجأ فيه إلى الأعلى والأشد، وقد يكون الإسرار بالإنكار أولى من الإشهار.
2- أن يبتعد الناهي عن المنكر عن ذكر الأسماء والأشخاص والهيئات، لأن التسمية والتخصيص قد يتعرض معهما الناهي للعقوبات والجزاءات ولا تؤدي الغرض المطلوب.
3- هنالك منكرات في المجتمع ثبت منكرها عند الناس جميعًا، والنهي عنها مقبول لدى المجتمع، وذلك مثل الزنا والخمر والمخدرات والخلوة، فمثل هذه المنكرات ينادى بالإنكار على مستوى المجتمع خطبًا ومحاضرات وكتابات وغيرها.
4- إن جمع الإحصائيات والبيانات والأخبار والتقارير حول بعض المنكرات تجعل الحجة في المقاومة أقوى وأوسع، وهي مما تمس

---

[147]() سبق تخريجه.

الحاجة إليه في هذا الوقت الذي تقام فيه البحوث على هذه الإحصاءات.

5- إن التحري الدقيق لصدق المعلومات أساس في إصابة الهدف، والمبالغة والكذب يحرمان الداعية من صلابة الموقف وصدق الدعوة، ومن ثم أهمية النتيجة وحسنها[148].

المرتبة الثالثة:

التغيير بالقلب، وقد جعله النبي ﷺ رتبة معتبرة، ومن لم ينكر المنكر بقلبه فليس في قلبه شيء من الإيمان، إذ أن إنكار المنكر بالقلب هو القاعدة الأساس، وهذه القاعدة مشتركة بين جميع المراتب، فمن أنكر بيده فلابد أن يكون منكرًا بقلبه، من أنكر بلسانه فلابد أن يكون منكرًا بقلبه أيضًا، والإنكار بالقلب معناه مقت المنكر وكرهه والاشمئزاز منه، ومن كره شيئًا وعاداه بقلبه فلابد أن تتحول هذه الكراهية إلى عمل إيجابي يظهر في كلماته وحركاته وسكناته، فالعاطفة المتأججة هي مصدر الحركة والفعل، وهذه الرتبة رتبة عامة يقدر عليها كل مسلم في كل زمان ومكان، وشرطها عدم الرضا والشعور بالسخط على المنكر وأهل المنكر. وأدنى درجات هذه الرتبة اعتزال المنكر والابتعاد عنه.

تداخل المصطلحات:

وقبل أن نختم هذه القاعدة يحسن أن نبيّن أنه ورد في القرآن والسنة مصطلحات متقاربة مثل: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، و«الدعوة»، و«النصيحة» ونحوها، وقد تفهم أنها مترادفة أو متباينة.

ولا شك أن بينها تداخل وقواسم مشتركة كما أن بينها فوارق، أو عموم وخصوص، ولست أقصد هنا، التفصيل في ذلك وإنما أردت أن أشير إلى مواضع يلتبس فيها عند دراسة هذا المبدأ بسبب تعدد المصطلحات.

ومما قصدته هنا:

1- حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة وهو فرض كفاية على الأمة أو على المجتمع، ويكون فرض عين في حالات

---

[148]() قواعد الدعوة إلى الله تعالى، ص: (153-154).

من أهمها:

أ – ألا يوجد مُنكِر غيره كالأب في بيته.

ب – أن يعين ولي الأمر من يقوم بالأمر والنهي في مجال معين، مثل تعيينه هيئات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيصبح واجبًا عينيًا عليهم، بينما يكون على غيرهم مستحبًا.

2- أن من أهم الفوارق أنه الأمر أو النهي المعين فرض عين بينما الدعوة أو النصيحة العامة تكون فرض كفاية.

3- أن من كانت عليه فرض عين لزمه، وله أن يستخدم الصلاحيات الممنوحة له من قبل ولي الأمر وهو المفروض عليه أولًا، ومن لم تكن عليه فرضًا عينًا فهذا يدخل في فرض الكفاية.

الآثار المترتبة على مخالفة هذه القاعدة:

إن مخالفة هذه القاعدة له آثار خطيرة على الدعوة والداعية منها:

1 -أن التقصير من الدعاة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو البناء والمعالجة يجر على الأمة شرًا مستطيرًا وفتنًا كثيرة، منها انتشار المنكر، وإشاعة الفاحشة، وتفشي الجرائم، وتعدي حدود الله... غير ذلك، وقد قال الله تعالى:

2 – تأخر الأمة وضعفها في جميع الميادين، لأن الشرّ إذا انتشر، والخير إذا تأخر، أدى إلى تراجع الأمة، ومن ثم كان ذلك سببًا للعقوبا.

3 – ما ذكره الله سبحانه وتعالى من الخيرية لهذه الأمة وفلاحها ونجاتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحل محله الهلاك والخسارة واللعن والطرد كما سبق في النصور.

4 - أن عدم إحاطة الداعية بفقه إنكار المنكر يجعله يتخبط في دعوته فيضر أكثر مما ينفع، بل يجعل الناس ينصرفون عنه وعن دعوته، فيكون قد أفسد من حيث أراد أن يصلح، وما ذلك إلا لعدم فقهه في تغيير المنكر أو في مراتب تغييره.

والخلاصة:

أن الدعوة لها مساران متوازيان، مسار البناء والتربية وهو مسار الأمر بالمعروف، ومسار المعالجة وهو مسار النهي عن المنكر. ويمكن تلخيص ما سبق وفق هذه الرؤية في النقاط الآتية:

1 – أن الله جل وعلا ندب إلى البناء في جميع المجالات النافعة، عقديًا، وعلميًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، وسياسيًا، وغيرها وفق ما ينطلق منها من مشاريع عظيمة، ووفق أي تسمية سميت، ولو لاحظنا تعبير القرآن الكريم لوجدناه يعبر التعبيرات الجامعة لكل هذه المجالات، مثل: «الأمر بالمعروف»، و«الدعوة إلى الخير».
وبناء على ذلك أقول: من الخير أن يتعامل الجميع مع هذا الأصل وبخاصة أهل العلم والفكر والدعوة فتُبنى المشاريع على ذلك، سواء كانت مشاريع فردية أو مؤسسية، صغيرة أو كبيرة.
وهذا مسار عظيم تتأكد عظمته من خلال دراستنا لسيرة النبي ﷺ، فمنذ أن كلف بالدعوة، وهو يتجه عليه الصلاة والسلام إلى العمل في هذا المسار.
2 – وكما وجّه الله جلّ وعلا إلى المسار الأول وجّه سبحانه وتعالى إلى المسار الثاني وهو المعالجة للأخطاء، وتعديل المعوج، وسماه سبحانه: «النهي عن المنكر» و«النهي عن السوء» ووصف أهله بالإجرام: «إن الذين أجرموا».
وبناء على ذلك أقول: من الخير أن يوجد أعمال ومشاريع على مستوى الأفراد، والمؤسسات، والمجتمع، والدولة للقيام بهذه المهمة العظيمة سواء سميناها: معالجة الأخطاء، أو تغيير المنكرات، أو تصحيح الانحراف، وسواء كانت متخصصة بشيء معين كمكافحة التدخين، أو المخدرات، أو عامة لكل خطأ كهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسواء كان القائم فردًا في مهمة، أو مؤسسة، أو غيرها.
3 – يجب أن ينظر إلى هذين المسارين على أنهما مساران متوازيان وليسا مسارين متعارضين أو متضادين، وبناء على ذلك:
أ – من الخير العمل بهما جميعًا وفق ما تقتضيه حاجة المجتمع أو المجتمعات.
ب – أنهما يكمل بعضهما بعضًا، والحاجة إليهما قائمة، وذلك بالنظر إلى عموم المجتمع، وهذا يقتضي أن زيدًا – مثلًا – لديه مشروع بنائي، وأن عمروًا – مثلًا – لديه جمعية لمكافحة الرشوة، فهذه تكمل ذلك.

ج – عدم التثريب على من يقوم بمسار دون الآخر، وعدم اللمز والغمز، وبأي من المسارين أو بمن يقوم بأحدهما، وهذا التثريب من القواصم لظهر الدعوة، وعدم الفقه السليم، ومن تلبيس إبليس.

4 – قد يحصل جدل أيهما أهم؟ والحقيقة هما كالدائرة، فكلا المسارين مهم، والقدوة عليه الصلاة والسلام عمل بهما جميعًا.

والله جل وعلا قال: (واعبدوا الله) وهذا مسار، وقال: (ولا تشركوا به شيئًا) وهذا مسار. وقد يكون هذا أهم في وقت، وذاك في وقت، فنبي الله شعيب عليه السلام أمر بالتوحيد، ونهى عن التطفيف بالمكاييل والموازين، ولم يخصص النهي عن شيء آخر، ونبي الله لوط عليه السلام، أمر بالتوحيد، ونهى عن اللواط ولم ينه عن شيء آخر، وهكذا سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فدلّ هذا على أنه يتأكد أمر بمسألة دون أخرى مع بقاء الأصل وهو «الأمر بعبادة الله، والنهي عن الشرك»، وعليه فالجميع مهم.

وهذا يعالج ما يتراءى للبعض بأن يلمز الآخرين لتركيزهم على أمر لا يراه مهمًا، لكنهم سُخّروا له، ففي نظرهم أنهم مهم، ولذا يجب النظر إلى أن الجميع في مسار واحد.

□□□□□